جواهِر القرَان
درر الهداية من ثلاثين جزءاً
المجلد المجلد الأول- مسالك الحكمة الإلهية
(الأجزاء 1 - 15)
د. ممدوح محمد سلامة

جواهر القرآن
دُرَر الهداية من ثلاثين جزءاً
المجلد الأول – مسالك الحكمة الإلهية (الأجزاء 1–15)

تُقدِّم *جواهر من الأجزاء الخمسة عشر الأولى* عشر لآلئ مضيئة من كل جزء، تُرشد القارئ من سورة الفاتحة إلى سورة الكهف عبر الموضوعات التأسيسية في القرآن العظيم: الهداية، وبناء الشخصية، والحكمة الإلهية.
يُبرز هذا المجلد البنية الأخلاقية للقرآن، ونداءه إلى التكريم، والتواضع، وحسن التوكل على الله، وصفاء المقصد.
وبأسلوب سهلٍ عميق، يدعو هذا العمل القارئ إلى تذوّق القرآن بوصفه دليلاً حيًّا يُهذّب القلب ويبني المجتمع.

Table of Contents

عن هذا المجلد 7
المقدمة 8
المقدمة العامة: القرآن — كنز الجواهر الإلهية 9
جواهر من الجزء الأول: أسس الإيمان وبناء الشخصية 10
1. الهوية الجماعية والعبودية لله 10
2. العقل في خدمة الوحي 10
3. تصور الإنسان: خليفة لا كائن مستقل 11
4. حكمة السؤال 11
5. قيمة العلم 11
6. العقل تحت نور الوحي 12
7. حماية العلم وصيانته من الانحراف 12
8. قوة الكلمة 12
9. الإيمان والصدق فوق النسب 13
10. السعي للسلام والبركة للجميع 13
جواهر من الجزء الثاني: بناء التوازن والحضارة 14
1. الهداية للجميع 14
2. تحوّل القبلة — الهوية والاستقلال 14
3. أمة الوسط 15
4. الصبر والصلاة عند الشدائد 15
5. السفن — إشارات إلى الصناعة والحضارة 15
6. الصيام وغايته 16
7. القرب الإلهي من خلال الدعاء 16
9. الفضل فوق العدل 17
10. قصة طالوت وجالوت — القيادة والنصر 17
جواهر من الجزء الثالث: معاملات الحكمة 19
1. المعاملة العقلية: معرفة جلال الله وسيادته 19
3. المعاملة العقلية: تكريم التساؤل الصادق 20
4. المعاملة العقلية: حرية الاعتقاد 20
5. المعاملات المالية مع الله: الصدقة 21
6. المعاملات المالية ضد أمر الله: الربا 21
7. المعاملة المالية – الشفافية والعدل 22
8. المعاملة الروحية: التسليم والرحمة الإلهية 23
9. المعاملة العقلية: بين الفرد والمجتمع والآيات المحكمات والمتشابهات 23
10. المعاملة الروحية: صدق الدعاء 24
جواهر من الجزء الرابع: وحدة الأمة والعدل في المجتمع 25
1. الحذر من الفرقة والتمسك بحبل الله 25
2. الخيرية مرتبطة بالإيمان والفطرة السليمة 26
3. الرحمة والحِلْم في القيادة 26
4. التفكر في الكون عبادة وبناء حضارة 26
5. الحماية الحقيقية للأبناء 26
6. الثقة بالنصر من صدق الإيمان 27
7. حكمة الابتلاء: النصر والهزيمة كلاهما امتحان 27
8. اليقين بالمصير والرجوع إلى الله 27

9. التوازن بين العدل والرحمة 28
10. نظام الميراث: عدلٌ مُفصَّل لا تفضيلٌ أعمى 28
جواهر من الجزء الخامس: الرحمة، الأمانة، والعدل المطلق 31
1. التركيز على النِّعم: دواء لمرض التبرُّم والسخط 31
2. إرادة التيسير والرحمة في الشريعة 31
3. جذور الشقاق الأسري: الكِبْر والتعالي 31
4. أداء الأمانات وإقامة العدل 33
5. المسؤولية في مواجهة الظلم 33
6. مبدأ المعاملة بالإحسان 34
7. حرمة دم المؤمن 34
8. النجوى: لا خير فيها إلا لما فيه معروف 34
9. العدل المطلق: فوق كل انتماء 34
10. مكانة الصلاة في الإسلام 35
جواهر من الجزء السادس: الخُلُق، العهود، والكمال الإلهي 36
١. حراسة اللسان في الخطاب العام 36
٢. الإيمان بالرسل جميعًا سلسلة واحدة من الحق 36
٣. القرآن وحيٌ يشهد له الله بنفسه 37
٤. القرآن برهانٌ ونور 37
٥. الوفاء بالعقود والعهود 37
٦. كمال الدين الإسلامي 38
٧. العدل والإنصاف حتى مع الأعداء 38
٨. حرمة الحياة الإنسانية 38
٩. العلاقة الحقيقية مع الله علاقة محبة 38
١٠. التزام الشرائع الإلهية: تكليفٌ عام 39
جواهر من الجزء السابع: تأملات في الإحاطة الإلهية والبصيرة الأخلاقية 41
١. كفّارة الأيمان 41
٢. الكتاب المنزل والكتاب الأصل 41
٦. الخلق حقٌّ لا وهم 45
٧. الفطرة السليمة تقود إلى الله 46
٨. تسلية الدعاة إلى الله 46
٩. الانفراد بين يدي الله 46
١٠. أدب الحديث عن عقائد الآخرين 47
جواهر من الجزء الثامن: تأملات في الوحي، والإصلاح، والصراط المستقيم 48
١) رفض التقليد الأعمى 48
٢) الإثم الخفي 48
٣) الذرية الجديدة 49
٤) الطعام المحرم 49
٥) أوامر الصراط المستقيم الجامعة 50
٦) الوحدة أمرٌ شرعي لا خيار 51
٨) اللباس مرآة تعظيم بيوت الله 52
٩) الخلق والأمر: نمطان من الفعل الإلهي 52
١٠) النصيحة مسؤولية مركزية لكل المصلحين 53
جواهر من الجزء التاسع: الإيمان، والخلق، وطريق القرب الإلهي 55
١) مفتاحا الخيرات العظيمة 55
٢) الدلالة الروحية لرقم الأربعين 55
٣) تشجيع الفضول المعرفي 56

٤) خطر الكِبر 56
٥) رسول الرحمة واليسر 57
٦) احرص أن تكون لك حُجّة 57
٧) العهد الأعظم 57
٨) ادعه بأسمائه الحسنى 58
٩) الوصف الجامع لمكارم الأخلاق 58
١٠) ثمرات التقوى 59
جواهر من الجزء العاشر: دروس في النظام الإلهي، والإيمان، والتجدد 60
1) المتطلبات الستة لنيل نصرة الله في القتال 60
2) لا يتغيّر شيء ما لم تتغيّر أنت 61
3) السلام بالقوة والتوكل على الله 61
4) مقياس الإيمان 62
5) السبب الحقيقي لمشكلات العالم 62
6) قرّر من تحب حقًا 63
7) معيار التوحيد الخالص هو حرية الفكر 63
8) إبطال النسيء: إعادة الزمن إلى التقويم الإلهي 64
9) «الله معك»... سكينة لكل خائف 65
10) الأصناف الثمانية للصدقات والزكاة 65
جواهر من الجزء الحادي عشر: تأملات في الحكمة الإلهية والهداية وطريق الاستقامة 67
1) القيمة العظيمة للصدقة 67
2) عباد الله الصادقون 67
3) الاستغفار لغير المسلم أم الدعاء له بالرحمة 68
5) الكون: نظامٌ مغلق قابل للإعادة 69
6) دعاء أهل الجنة: التسبيح والحمد 70
7) زوال الدنيا وسرعة انقضائها 70
8) الولاية: أكرم مقامٍ يناله المؤمن 71
9) أدعية الأنبياء المختلفة 71
10) إحكام القرآن ووضوحه 72
جواهر من الجزء الثاني عشر: النبوّة ومصير الحضارات 73
1) الرزق 73
2) دلالة الماء قبل الخلق 73
3) اختبار الإبطال (Falsification Test) 74
4) وحي صناعة السفن 75
5) قوة الاستغفار 75
6) دور الإنسان بوصفه بانيًا في الأرض 76
7) الصيحة كسلاحٍ إلهي 76
8) التساؤل حول أبدية النار (تأملٌ تدبري) 77
9) خطر الميل إلى الظالمين 79
10) دور القصص في القرآن 79
جواهر الجزء الثالث عشر: الشكر والذكر والتوحيد الخالص 81
1) مؤهلات القيادة: الأمانة والعلم 81
2) لا تُعنِّف عند لحظة الندم 82
3) التواضع 82
4) احذر الشرك الخفي 82
5) الدعوة: مسؤولية كل مسلم 84
6) أمثال تقابل الحق والباطل 84

7) الذكر: سكينة القلب 85
8) الهداية الحقيقية: من الظلمات إلى النور 86
9) قيمة الشكر 87
10) قوة الكلمة 87
جواهر الجزء الرابع عشر: الرحمة والابتلاء والجمال الأخلاقي 89
1) الاتصالات الإلهية: البنية الكونية لحماية الوحي 89
2) الله المتحكّم في جميع الموارد 90
3) الشيطان يعلم أن الإنسان خُلق للأرض 90
4) السبع المثاني 91
5) التعامل مع الأذى اللفظي 93
6) المؤمن يرى الجمال في كل شيء 94
7) العقوبة الحقيقية في الآخرة – فاصبر 95
8) بركات الطاعة 97
9) خلاصة مكارم الأخلاق كلها 98
10) اللطف في الدعوة 100
جواهر الجزء الخامس عشر: مسالك الحكمة الإلهية 102
1. الروابط الأربع 102
2. الليل والمادة المظلمة 103
3. الكتاب الشخصي 104
4. التكريم الشامل 104
5. الحكمة: الوصايا العشر 105
6. اختيار أحسن القول 107
7. الهداية 108
8. النبوءة 109
9. التوكّل على الله يغيّر القواعد 109
10. طلب الأفضل دائمًا 110
عن المؤلف 112
الغلاف الخلفي 113

عن هذا المجلد

حلة عبر القرآن — جزء واحد، عشر جواهر في كل محطة

يصطحب هذا المجلد القارئ في رحلة تأمّل عبر النصف الأول من القرآن الكريم، من سورة الفاتحة إلى سورة الكهف، كاشفاً عن أبهى الموضوعات التي تشكّل الإيمان والشخصية والفهم العميق لرسالة الله.

وعبر هذه الأجزاء الخمسة عشر، تتجلّى الهياكل الروحية والأخلاقية الكبرى التي يبني القرآن عليها رؤيته: وعد الهداية، وصراع النفس، وسنن الله في التاريخ، وصقل الأخلاق والكلام، والتوكل، وتكريم الإنسان، وحِكَم الأوامر الإلهية، والرؤية الأخلاقية التي تسمو بالأفراد والمجتمعات.

يقدّم كل جزء عشر جواهر — آيات مختارة تضيء رسالةً مركزيةً في ذلك الجزء. وتشكل هذه الجواهر نسيجاً من المعاني التي:

✓تعزّز صلة الإنسان بربه
✓توضّح قوانين الهداية والضلال
✓تُبرز كرامة بني آدم
✓تعلّم الصبر والتواضع وحسن التوكل
✓تُظهر كيف يهدي القرآن القلوب والحضارات
✓وتكشف القرآن دليلاً عملياً للحياة

من النداء الافتتاحي في سورة الفاتحة، إلى البنية الأخلاقية في البقرة، والدروس التاريخية في الأعراف، وثبات الأنبياء في يونس وهود، واللمسات التحويلية في الإسراء والكهف — يصحب هذا المجلد القارئ عبر بدايات القرآن، المفعمة بالمعنى والعمق والغاية.

إنه عمل سهل ممتع، عميق الدلالة، راسخ في البناء الموضوعي للقرآن، يناسب القراءة الفردية، وبرامج رمضان، وحلقات التعليم، والدوائر القرآنية.

وهذا هو المجلد الأول من السلسلة القادمة :**جواهر القرآن: دُرَر الهداية من ثلاثين جزءاً.**

المقدمة

على مدى سنوات طويلة، تلا المسلمون القرآن بمحبة وتفاني ، ولكن ليس دائماً ضمن مسار منهجي يُبرز جماله الموضوعي، وبناءه الأخلاقي، ورؤيته الحضارية. وقد نشأ هذا العمل — *جواهر من القرآن* —سعياً لاختيار عشر أيات من كل جزء، تُشكِّل رحلة تأمّل تُقرِّب القارئ من قلب الحكمة الإلهية.

وقد تبلور هذا المجلد الأول، الذي يغطي الأجزاء الخمسة عشر الأولى، عبر الدراسة والتأمل العميق. ففي كل جزء جواهر — آيات تتلألأ بالمعنى، والهداية، والقدرة على التحويل. تُعلّمنا كيف نعيش بكرامة، وكيف نكرّم الخلق، ونفهم الهداية، ونتوكل على الله، ونرتقي بأخلاقنا في كل ظرف.

وليست هذه التأملات بديلاً عن التفاسير المعروفة ولا مدّعية لاستنفاد معاني القرآن، بل هي *بابٌ موضوعي* يتيح للقارئ أن يعيش القرآن دليلاً عملياً — جزءاً بعد جزء — ليكتشف الحكمة المضمَّنة في بنيته.

ومع الشكر لله وحده، أقدّم هذا المجلد بوصفه بداية مشروع أوسع يمتد — بإذن الله — ليغطي الأجزاء الثلاثين كاملة. وأسأل الله أن يجد كل قارئ في هذه الجواهر نوراً يشرق في القلب، ويقرّبه من خالقه.

المقدمة العامة: القرآن — كنز الجواهر الإلهية

القرآن كتابٌ فريد لا يشبهه كتاب؛ فهو الرسالة الأخيرة المحفوظة من الله إلى البشرية. يضم ١١٤ سورة موزعة على ثلاثين جزءاً، وفي آياته كنوز لا تقدّر بثمن — جواهر من الحكمة والهداية والنور — لا تنكشف إلا بالتدبر العميق.

ومع أن التلاوة عبادة جليلة، إلا أن القرآن نزل لأكثر من ذلك بكثير؛ فهو **دستور حياة**، و **خارطة حضارية**، و **نورٌ للطريق**، و **روحٌ تحيي القلوب**، ودعوة لإحياء القيم والنهوض بالأفراد والمجتمعات.

ومع الأسف، من مآسي واقع الأمة أن القرآن — مع شدة تعظيمه — كثيراً ما يُهجر حين يتعلق الأمر بتطبيق هداياته في أخلاقنا ومؤسساتنا وقراراتنا ومجتمعاتنا. فنغضب إن مُسّت صفحاته، ولكن لا نجد الغضب نفسه حين تُهمَل معانيه. وقد سجّل القرآن هذا الواقع في شكوى النبي ﷺ:

﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴾ (الفرقان 30)

يسعى هذا الكتاب إلى معالجة هذا الهجر عبر إحياء التدبر. فالمنهج بسيط عميق :**عشر جواهر من كل جزء** —آيات تكشف حقائق عظيمة عن الإيمان، وبناء الإنسان، والمجتمع، وسنن الله.

وتجمع الأجزاء الخمسة عشر الأولى موضوعاتٍ تلامس جوهر الرسالة: الرحمة الإلهية، كرامة الإنسان، المسؤولية الأخلاقية، طبيعة الهداية، قوة التوكل، وصقل الشخصية عبر القول والعمل والنوايا. وهي تُظهر كيف يخاطب القرآن القلب والعقل معاً، وكيف تبقى حكمته صالحة لكل زمان ومكان.

إن اكتشاف هذه الجواهر دعوة لعيش القرآن — لا بوصفه كتاب تلاوة فقط — بل محادثة حيّة، ودليلاً يوجّه الحياة، وينير الطريق، ويهب المعنى والطمأنينة.

المؤلف

جواهر من الجزء الأول: أسس الإيمان وبناء الشخصية

(من آية 1 من الفاتحة إلى آية 141 من البقرة)

المقدمة

يبدأ القرآن العظيم بسورة الفاتحة، حيث يعرّف اللهُ سبحانه وتعالى بنفسه، ويحدّد العلاقة بين الخالق والمخلوق، ويضع الإطار العام للقرآن بوصفه هداية حيّة للبشرية جمعاء. ثم تأتي سورة البقرة مباشرة لتُعلن أن هذا الكتاب كتاب هداية، ولتقسّم الناس إلى ثلاثة أصناف:

- المؤمنون (4 آيات)
- الكافرون (آيتان)
- المنافقون (13 آية — أخطر الأصناف، لأن النفاق يهدّد المجتمع من داخله)

ويمضي هذا الجزء ليعرض خلق السماوات والأرض، وقصة آدم واستكبار إبليس، وتاريخ بني إسرائيل مع موسى عليه السلام، وقصة هاروت وماروت، وبناء الكعبة على يد إبراهيم عليه السلام ودعاؤه بمبعث الرسول الخاتم. ومن هذا الجزء نستخرج جواهره ودروسه الخالدة.

1. الهوية الجماعية والعبودية لله

سورة الفاتحة دعاءٌ ومنهاجٌ للإنسانية. يعرّف الله نفسه فيها بأنه **رَبُّ الْعَالَمِينَ**، ربُّ كل الخلق، لا ربّ البشر وحدهم. وهذا يوسّع نظرة المؤمن ويجعله يفيض احتراماً ورحمةً لكل من حوله.

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

وتأتي صيغ الدعاء في الفاتحة كلها بصيغة الجمع:

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾
﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾

لتؤكد أن الإيمان يُعاش جماعياً لا فردياً؛ يقوم على التضامن والدعم المتبادل. وهذا على خلاف الفردانية الحديثة التي تقدّم الذات على الجماعة، فتنتهي إلى التشرذم وضعف الروابط المجتمعية. أمّا الإسلام فيبني وحدةً تمنع التمزّق وتقوّي المجتمع.

2. العقل في خدمة الوحي

يكرّم القرآن العقل، لكنه يربطه بالهداية الربانية. وتبدأ سورة البقرة بهذا الإعلان الجليل:

﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ...﴾(البَقَرَة ٢،٣)

على خلاف العقلانية المادية التي تنكر الغيب، يقدم الإسلام رؤية متوازنة تجمع بين العقل والوحي، فلا يُلغى عقل، ولا يُترك وحده بلا نور.

3. تصور الإنسان: خليفة لا كائن مستقل

الفكر المعاصر يصوّر الإنسان ككائن مستقل مكتفٍ بذاته. أمّا الإسلام فيقدّمه خليفةً لله في الأرض، مسؤولاً أمامه:

﴿ وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗ﴾(البَقَرَة ٣٠)

وهذا التوكيل الإلهي يمنح الوجود الإنساني معنىً وغايةً ومحاسبة.

4. حكمة السؤال

قد تكون الأسئلة طريقاً للعلم إن طهرت النية. فقد سأل الملائكة عن خلق آدم:

﴿ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ ...﴾(البَقَرَة ٣٠)

فلم يُجبهم الله مباشرة، بل بيّن لهم حدود معرفتهم:

﴿ إِنِّي أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾(البَقَرَة ٣٠)

وفي هذا جواب عن سرّ وجود الشرّ: أن له حكمةً قد تخفى عنّا.

وكما أن الموظف لا يدرك أبعاد قرارات المدير العليا، فإن العبد لا يدرك عمق حكمة الله، وهو **الحكيم العليم**.

معرفتنا ناقصة، ومعرفته مطلقة. والإيمان يقتضي الثقة بحكمته عند ما يبدو لنا غامضاً أو مؤلماً.

5. قيمة العلم

تكمن كرامة آدم في العلم:

﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ ٱلۡأَسۡمَاءَ كُلَّهَا ﴾ (البَقَرَة ٣١)

العلم أساس الحضارة والإنسانية. لكنه لا يرفع صاحبه إن أورثه كبراً، بل إن العلم الحقّ يزرع التواضع والخدمة.

6. العقل تحت نور الوحي

يُكْرِم القرآنُ العقلَ، لكنه يضبط مساره بنور الوحي حتى لا ينحرف مع الظنون أو يقف عاجزاً أمام الغيب. فالعقل أداة للبحث، والتفكير، والاستنباط، لكنه لا يمكن أن يكون مصدراً للحقائق النهائية وحده. ولهذا افتتحت سورة البقرة ببيان منزلة العقل حين يستنير بالهداية:

﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ (البَقَرَة ٢،٣)

فالقرآن لا يطلب من الإنسان أن يُعَطِّل عقله، ولا أن يُلغي تفكيره، بل يطلب منه أن **يستخدم عقله داخل إطار الهداية**، وأن يعترف بحدود معرفته أمام عظمة الغيب وعظمة الحكمة الإلهية.

فبينما تُقصي المذاهب المادية الحديثة كل ما لا يُدرَك بالحسّ، يقدّم الإسلام رؤية متوازنة:
عقلٌ يبحث... ووحيٌ يوجّه... وغيبٌ يُكمل الصورة.

وهذا التوازن يصنع إنساناً سليماً في فكره، ثابتاً في مبادئه، واسع الأفق، لا يضلّه ادّعاء العلم، ولا تُقْعِده حدودُ العقل

7. حماية العلم وصيانته من الانحراف

يحذّر الله من تعلّم ما يضرّ ولا ينفع:

﴿ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ﴾ (البَقَرَة ١٠٢)

فالعلم ينبغي أن يكون شفاءً ورحمةً، لا أداة فساد أو فرقة أو إيذاء.

8. قوة الكلمة

قال تعالى:

﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ (البَقَرَة ٨٣)

وقال النبي ﷺ:

«لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بِالطَّعَّانِ، وَلَا اللَّعَّانِ، وَلَا الْفَاحِشِ، وَلَا الْبَذِيءِ» (رواه الترمذي والحاكم)

الكلمة تجرح أو تداوي، تهدم أو تبني.
القول الحسن ليس مجرد تهذيب، بل **علامة إيمان** وصقل للنفس.

وبالكلمة الطيبة تُبنى الأسر والمجتمعات.

9. الإيمان والصدق فوق النسب

الإمامة ليست وراثة. لما جعل الله إبراهيم إماماً، سأل أن يكون ذلك في ذريته، فجاء الرد:

﴿ لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾(البَقَرَة ١٢٤)

فالقيادة في الإسلام معيارها **العدل والإخلاص**، لا الانتماء أو الامتياز.

10. السعي للسلام والبركة للجميع

دعا إبراهيم عليه السلام:

﴿ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ (البَقَرَة ١٢٦)

وكانت دعوته للذين آمنوا فقط، لكن الله وسّع رحمتَه:

﴿ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلٗا ...﴾ (البَقَرَة ١٢٦)

في هذا تعليم بليغ:
أن الأمن والرزق في الدنيا مسؤوليات مشتركة، تشمل المؤمن والكافر . أما الحساب فموكول إلى الآخرة.

دور المسلم إذن: **نشر السلام، تقديم الخير، وبناء الازدهار للجميع.**

الخاتمة

هذه عشرة جواهر من الجزء الأول. فكيف لو تأملنا أجزاء القرآن الثلاثين كلها؟

لا ينبغي لنا أن نهجر القرآن، بل أن نجعله دليلَ حياتنا، نعلّمه لأبنائنا، ونبني به أسرنا ومجتمعاتنا وذواتنا.

جواهر من الجزء الثاني: بناء التوازن والحضارة

(من الآية 142 إلى الآية 252 من سورة البقرة)

المقدمة

يتناول الجزء الثاني التحوّل التاريخي في اتجاه القبلة، ويبيّن أن شرف الأنبياء مرتبط بالكتب التي أنزلها الله عليهم، وأن تلك الكتب يجب أن تُؤخذ بجدٍّ واعتبار بوصفها مصادر الهداية. كما يعالج أموراً أساسية في حياة الإنسان: العبادات مثل الصيام والحج، والمسائل الأسرية مثل الزواج والطلاق. ويختتم بقصة طالوت وجالوت التي يظهر فيها نبي الله داود عليه السلام لأول مرة.

ومن هذا الجزء نستخرج جواهر خالدة، ودروساً لبناء التوازن والحضارة:

1. الهداية للجميع

يقدّم القرآن نوعين من الهداية:

هداية عامة للناس جميعاً، وهداية خاصة تُغيّر حياة من يتّقي الله.

﴿ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ ۛ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (البَقَرَة ٢)
﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ ...﴾ (البَقَرَة ١٨٥)

فالقرآن يخاطب البشرية كلها بالعدل والحق، لكنه لا يحوّل القلوب إلا إذا أقبل صاحبُها عليه بتواضع وتقوى. ومن واجب الأمة أن تعيش هداية القرآن وأن تقدّم رسالته للعالم.

2. تحوّل القبلة ـــ الهوية والاستقلال

كان تحويل القبلة من بيت المقدس إلى مكة نقطةً فاصلة، وامتحاناً لثبات المؤمنين أمام السخرية:

﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (البَقَرَة ١٤٢)

أثبت هذا التحوّل استقلال الأمة الإسلامية وهويتها الخاصة. فهو اختبار طاعة، ورمز وحدة تحت أمر الله. فهويّة المسلم لا تُبنى على تقليد الآخرين، بل على الولاء لله، وقوة الإيمان، ووحدة الجماعة.

3. أمة الوسط

عرّف الله الأمة الإسلامية بأنها أمة التوازن والاعتدال:

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗا﴾(البَقَرَة ١٤٣)

الوسطية ليست ضعفاً، بل قوّة عقلية وروحية وتشريعية تضبط العلاقة بين الشدّة والتفريط. وهي شرط الشهادة على الناس. وهذه الوسطية تقوم على تزكية النفوس وتعليم الحكمة، وهو دور النبي ﷺ:

﴿ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾(البَقَرَة ١٥١)

وجذر هذه الوسطية هو ذكر الله الدائم:

﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ...﴾ (البَقَرَة ١٥٢)
﴿ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكۡرِكُمۡ ءَابَآءَكُمۡ أَوۡ أَشَدَّ ذِكۡرٗا.. ﴾ (البَقَرَة ٢٠٠)

فالذكر عبادة غير مقيّدة بزمان أو مكان، يحيي القلب ويضبط السلوك.

4. الصبر والصلاة عند الشدائد

الحياة مليئة بالابتلاءات: فقدان رزق، أو صحة، أو أحباب.
والصبر — في الإسلام — ليس تحمّلاً سلبياً، بل ثباتٌ واعٍ مدعومٌ بالصلاة:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ...﴾(البَقَرَة ١٥٣)

وكان النبي ﷺ إذا ضاق صدره قال :«يا بلالُ، أَقِمِ الصلاةَ، أرحْنَا بها.»
الصلاة والصبر يحوّلان المحن إلى رفعة.

5. السفن — إشارات إلى الصناعة والحضارة

يلفت القرآن النظر إلى السفن بوصفها منافع عظيمة للبشر:

﴿ إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ ..﴾(البَقَرَة ١٦٤)

إشارة إلى أهمية الصناعة، والملاحة، والتجارة، والتواصل الحضاري.
وقد علّم اللهُ نوحاً صناعة السفينة، فكان أول تقدم صناعي في تاريخ البشر بوحيٍ رباني.

6. الصيام وغايته

الصيام ليس جوعاً، بل تدريب للنفس على الضبط والرحمة والتقوى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ (البَقَرَة ١٨٣)

رمضان مدرسة سنوية للتقوى، وصيام التطوّع استمرار لهذا التدريب.

وقد عرّف القرآن المتقين في آية جامعة:

﴿ لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَـٰمَىٰ وَٱلۡمَسَـٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَـٰهَدُواْۖ وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ **هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ** ﴾ **(البَقَرَة ١٧٧)**

فالبرّ إيمانٌ، وإنفاق، وصلاة، وزكاة، ووفاء بالعهد، وصبرٌ عند الشدائد — وهذه صفات المتقين.

7. القرب الإلهي من خلال الدعاء

وسط آيات الصيام يأتي هذا النداء المشرق:

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ ﴾ (البَقَرَة ١٨٦)

الله قريب، يسمع الدعاء بلا وسيط.
لكن الدعاء لا يُجاب بلا طاعة وإخلاص.

وقد حذّر النبي ﷺ من الحرام الذي يحجب القبول، حين ذكر الرجل المسافر الذي يدعو ويداه مرفوعتان، لكن طعامه وملبسه حرام:
«فأنّى يُستجاب لذلك؟»

8. حرمة الحج ومعانيه

الحج ليس طقساً فقط، بل تجديد للعهد الإبراهيمي، وتربية للنفس، وتعزيز لوحدة الأمة:

﴿ ...فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ...﴾(البَقَرَة ١٩٧)

حتى من لم يحجّ، يتعلّم أن الحياة رحلة تحتاج الانضباط والتزوّد بالتقوى.

9. الفضل فوق العدل

في ظلّ التوترات التي قد ترافق الطلاق، يأمر الله بالفضل:

﴿ وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ﴾ (البَقَرَة ٢٣٧)

الأخلاق الإسلامية ترتقي بالمجتمع، لأن الكرامة تُقدّم حتى عند الخلاف.

10. قصة طالوت وجالوت — القيادة والنصر

تكشف القصة معيارين خالدين:

أولاً: معايير القيادة

ليست الثروة ولا النسب، بل:
العلم والقوة.

﴿ ...وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ﴾(البَقَرَة ٢٧٤)

ثانياً: النصر بالإيمان والصبر

عندما خاف البعض من كثرة جالوت:

﴿ لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ ...﴾

قال أهل اليقين:

﴿ كَم مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ...﴾ (البَقَرَة ٢٤٩)

النصر ليس بالعدد بل بالإيمان والصبر والتأييد الإلهي.

كما يؤكد القرآن أن القتال دفاعي فقط:

﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ﴾ (البَقَرَة ١٩٠)

الخاتمة

يذكّرنا الجزء الثاني أن قوّة الأمة تكمن في التوازن، وذكر الله، والصبر في الابتلاء، والتفوّق الأخلاقي.
ومن الأسرة إلى القيادة، ومن العبادات إلى التقدّم الحضاري، يقدّم القرآن برنامجاً متكاملاً لبناء حضارة عادلة مزدهرة.

جواهر من الجزء الثالث: معاملات الحكمة

(من الآية 2:253 من البقرة إلى الآية 3:91 من آل عمران)

المقدمة

يدور هذا الجزء حول ثلاث معاملات ربانية كبرى:

- **معاملات عقلية** :تتمثّل في معرفة الله، والعمل بمقتضى هذه المعرفة، ونيل ثوابه.
- **معاملات مالية** :تكون مع الله أو مع الناس وفق هديه سبحانه.
- **معاملات روحية** :تتمحور حول الدعاء والابتهال.

1. المعاملة العقلية: معرفة جلال الله وسيادته

يستفتح الجزء بآية الكرسي، أعظم آية في القرآن، لتعرّفنا بجلال الله وربوبيته وسلطانه المطلق:

ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ (البَقَرَة ٢٥٥)

استيعاب معاني هذه الآية يرسّخ في القلب تمام الثقة بالله وليًّا وحافظًا وربًّا مدبِّرًا؛ لا يعتريه نوم ولا غفلة، ملكه يشمل السماوات والأرض، علمه محيط بكل شيء، لا يشفع أحد عنده إلا بإذنه، ولا يثقل عليه حفظ الكون.

ومن رحمته أن جعل الوحي سبيلاً لإخراج المؤمنين من ظلمات الشك والخوف والضغط الاجتماعي إلى نور اليقين والطمأنينة:

ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ.... ... (البَقَرَة ٢٥٧)

أما من كفروا فموالاة الطاغوت تقودهم من نور الفطرة الأولى إلى ظلمات الحيرة والضياع. فالمعاملة العقلية الأولى هي *:أن تعرف ربك حقًّا، فتسلّم له قلبك وعقلك، فيتولّاك بنوره وهدايته.*

2. المعاملة العقلية: الحكمة

من ثمرات معرفة الله واتباع هداه أن يرزق العبد الحكمة:

يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ... (البَقَرَة ٢٦٩)

الحكمة قوةٌ في الفهم، ورشدٌ في الاختيار، وثباتٌ في الموقف. بها ينتصر أولياء الله بالحجة، كما فعل إبراهيم عليه السلام مع الملك الجبّار؛ إذ حوّل مجرى النقاش وألزمه الحجة:

أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ (البَقَرَة ٢٥٨)

وكذلك لما أصرّ النصارى على زعمهم في عيسى عليه السلام، دعاهم النبي ﷺ إلى المباهلة؛ دعاء مشترك يَكشِف الكاذب ويُظهِر الصادق، إسنادًا للفصل إلى حكم الله:

...فَقُلۡ تَعَالَوۡاْ نَدۡعُ أَبۡنَآءَنَا وَأَبۡنَآءَكُمۡ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمۡ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمۡ ثُمَّ نَبۡتَهِلۡ فَنَجۡعَل لَّعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰذِبِينَ (أل عمران ٦١)

فهذه المعاملة العقلية تقوم على أن العلم بالله يورث الحكمة، والحكمة تُمكِّن صاحبها من نصرة الحق بالبيان والبرهان.

3. المعاملة العقلية: تكريم التساؤل الصادق

السؤال الصادق ليس طعنًا في الإيمان، بل رغبة في زيادة اليقين. سأل إبراهيم عليه السلام ربَّه أن يريه كيفية إحياء الموتى، فلم يُعنَّف، بل أُجيب بجوابٍ عمليٍّ يجمع بين الدليل العقلي والواقع المشاهد:

وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيۖ قَالَ فَخُذۡ أَرۡبَعَةٗ مِّنَ ٱلطَّيۡرِ فَصُرۡهُنَّ إِلَيۡكَ ثُمَّ ٱجۡعَلۡ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٖ مِّنۡهُنَّ جُزۡءٗا ثُمَّ ٱدۡعُهُنَّ يَأۡتِينَكَ سَعۡيٗاۚ وَٱعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ (البَقَرَة ٢٦٠)

بهذا يعلّمنا القرآن أن التساؤل إذا صدر عن قلب مؤمن، طالبٍ لطمأنينة الإيمان، فإن الله يرفعه إلى مراتب أعلى من اليقين.

4. المعاملة العقلية: حرية الاعتقاد

من أعظم الأصول في القرآن صيانة حرية المعتقد، لأن الإيمان لا يصحّ بالإكراه:

لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ... (البَقَرَة ٢٥٦)

فالطريق واضح، والحجة قائمة، ودور المؤمن تبليغ الحق بالحكمة والموعظة الحسنة، لا بالضغط والقهر. المجتمعات التي تُكرِه الناس على المعتقدات تُفسِد معنى الإيمان نفسه، أما التي تحمي حرية الاعتقاد في ظل العدل، فإنها أقرب لروح هذا المبدأ القرآني العظيم.

5. المعاملات المالية مع الله: الصدقة

المال من أعظم ابتلاءات الإنسان. جعل الله الزكاة ركنًا من أركان الإسلام، وامتحانًا لصدق التوحيد والتوكل. والشيطان يعلم خطورة هذا الباب، فيخوف العبد من الفقر ليمنعه من الإنفاق:

ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗا... (البَقَرَة ٢٦٨)

وغريزة حبّ المال وزينة الدنيا ضرورية لعمران الحياة، لكن الإيمان يضبطها:

ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ (أل عمران ١٤)

لمواجهة خوف الفقر، قدّم الله لنا الصدقة كأفضل استثمار:

مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ (البَقَرَة ٢٦١)

والأهم أن القيمة ليست في مقدار المال وحده، بل في صدق القصد ولطف المعاملة؛ فالكلمة الطيبة والمغفرة قد تكون أعظم من صدقة يتبعها أذى:

قَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞ وَمَغۡفِرَةٌ خَيۡرٞ مِّن صَدَقَةٖ يَتۡبَعُهَآ أَذٗى... (البَقَرَة ٢٦٣)

وقمّة البر أن ينفق الإنسان من أحبّ ما يملك:

لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ... (أل عمران ٩٢)

فالصدقة في حقيقتها معاملة مع الله، تُظهر صدق المحبة، والثقة في الوعد، والتجرّد من عبودية المال.

6. المعاملات المالية ضد أمر الله: الربا

من أشدّ المحرمات في القرآن تحريم الربا، حتى إن الله توعّد آكليه بحربٍ منه ومن رسوله:

فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ... (البَقَرَة ٢٧٩)

فبيئة الربا تستغل المحتاج، فتطالبه ليس فقط بردّ المال، بل بزيادة تثقل كاهله؛ بينما الصدقة والقرض الحسن يرفعان عنه الضيق ويستردان له كرامته. لذلك كان القرض في الإسلام باب رحمة، لا باب استغلال.

في الحديث:

((رأيت ليلة أسري بي مكتوب على باب الجنة الصدقة بعشر أمثالها، والقرض بثمانية عشر، قلت: يا جبريل ما بال القرض أفضل من الصدقة فقال: إن السائل يسأل وعنده والمستقرض لايستقرض إلا من حاجة)) رواه ابن ماجة

فالربح من حاجة المضطر يناقض الرحمة. ومن هنا جاء الوعيد:

يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ... (البَقَرَة ٢٧٦)

وَإِن كَانَ ذُو عُسۡرَةٖ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيۡسَرَةٖۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ (البَقَرَة ٢٨٠)

والآية التي تُشبّه حال آكل الربا بالممسوس من الشيطان جاءت ردًا على من ادّعى أن الربا مثل البيع:

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۘ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ... (البَقَرَة ٢٧٥)

ثم خُتمت آيات الربا بآية التذكير بالرجوع إلى الله والحساب:

وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ((البَقَرَة ٢٨١)

وفي المقابل، ألزم النبي ﷺ المدين بالجدّ في السداد:

«مَن أَخَذَ أَمْوَالَ النَّاسِ يُرِيدُ أَدَاءَهَا أَدَّى اللَّهُ عَنْهُ، وَمَنْ أَخَذَهَا يُرِيدُ إِتْلَافَهَا أَتْلَفَهُ اللَّهُ»

«يُغْفَرُ لِلشَّهِيدِ كُلُّ ذَنْبٍ إِلَّا الدَّيْنَ»

فهناك توازن: رحمة بالمدين المعسر، وتشديد على من يستهين بحقوق الناس.

7. المعاملة المالية – الشفافية والعدل

يتجلّى العدل في المعاملات بحفظ الحقوق، وتوثيق الديون، وإزالة أسباب النزاع. لذا جاءت أطول آية في القرآن في باب الدين والتعاملات:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُ... (البَقَرَة ٢٨٢)

الكتابة والتشهيد حماية للطرفين، تضبط الذاكرة والنسيان، وتسدّ باب التهمة. ومع التقدّم التقني، تبقى شهادة الإنسان الأمين الضابط أقوى من كل تسجيل قابل للتلاعب. فالقرآن حين جعل الشهود جزءًا من المنظومة القانونية، لم يعالج مشكلة عصرٍ واحد، بل وضع أساسًا صالحًا لمواجهة الانحراف في كل عصر.

8. المعاملة الروحية: التسليم والرحمة الإلهية

تُختتم سورة البقرة بإعلان إيمانٍ وتسليم، يعبّر عن حقيقة العبودية:

سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ (البَقَرَة ٢٨٥)

ثم يأتي الوعد العظيم: لا يُكلّف الله نفسًا إلا وسعها، وأن الحساب على ما كسبت واكتسبت، مع تعليم الأمة دعاءً جامعًا للمغفرة والرحمة والنصر:

لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ (البَقَرَة ٢٨٦)

قال النبي ﷺ:

«إِنَّ اللَّهَ خَتَمَ سُورَةَ البَقَرَةِ بِآيَتَيْنِ أَعْطَانِيهِمَا مِنْ كَنْزِهِ الَّذِي تَحْتَ العَرْشِ... فَتَعَلَّمُوهُنَّ وَعَلِّمُوهُنَّ نِسَاءَكُمْ وَأَبْنَاءَكُمْ...»

وقال ﷺ:

«الآيَتَانِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ البَقَرَةِ مَنْ قَرَأَهُمَا فِي لَيْلَةٍ كَفَتَاهُ»

أي كفتاه من الشرور، أو عن قيام جزء من الليل، أو جمع الله له بهما من الأجر ما يكفيه؛ وكلها تدل على عظمة هاتين الآيتين.

9. المعاملة العقلية: بين الفرد والمجتمع والآيات المحكمات والمتشابهات

قسّم الله آيات الكتاب إلى:

- **محكمات** :واضحات الدلالة، هنّ أمّ الكتاب، أساس العقيدة والتشريع.
- **متشابهات** :تحتمل وجوهًا من المعاني، وتفتح آفاقًا للتأمل والبحث.

مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ... (أل عمران ٧)

أهل الزيغ يتتبعون المتشابه طلبًا للفتنة، أما الراسخون في العلم فيُسلّمون بأنه كلّه من عند الله، ويجمعون بين الإيمان بالنص وبين التواضع العلمي.

المحكمات تضع لنا القواعد الثابتة في الإيمان والعبادة والأخلاق. أما المتشابهات فتفتح الباب أمام علوم العمران البشري: العلوم الطبيعية، والاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، والنفسية. وهنا يأتي دور **التكامل** بين:

علماء الشريعة، والمفكرين، والاقتصاديين، والعلماء، والقيادات؛ ليُترجَم هدي القرآن إلى مؤسسات عادلة وأنظمة راشدة.

10. المعاملة الروحية: صدق الدعاء

يعرض الجزء الثالث نماذج من الدعاء الذي يغيّر مسار التاريخ، كدعاء امرأة عمران، ودعاء زكريا عليه السلام.

نذرت امرأة عمران ما في بطنها محرَّرًا لله، فاستجاب الله دعاءها، فكانت مريم عليها السلام، التي خرج من نسلها عيسى عليه السلام:

رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي... فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ... (أل عمران ٣٥ ، ٣٦)

ثم دعا زكريا عليه السلام بذرية طيبة رغم كبر سنّه وعقم زوجته، فجاءه الجواب بيحيى عليه السلام:

قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ (٣٨) فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (أل عمران ٣٨ ، ٣٩)

فالدعاء الصادق، المقرون بالتقوى والصبر، باب من أعظم أبواب التغيير؛ به وهب الله مريم ويحيى وعيسى، وكان لكلٍّ منهم دورٌ مركزي في مسيرة الهداية والرحمة للبشر.

الخاتمة

يقدّم لنا الجزء الثالث من القرآن الحياةَ كسلسلة من **المعاملات مع الله**:

- معاملات عقلية: معرفة، وتسليم، وحكمة، وتساؤل صادق.
- معاملات مالية: إنفاق، وعدل، وترك للربا، ورحمة بالمدين.
- معاملات روحية: دعاء، واستغفار، وتسليم، وتوكّل.

بهذه المعاملات تُصاغ قلوبٌ تقاوم غواية الدنيا، وتبني مجتمعاتٍ عادلة، وتستثمر العقل والمال والروح في طريقٍ واحد :**طريق القرب من الله والفوز برضاه في الدنيا والآخرة.**

جواهر من الجزء الرابع: وحدة الأمة والعدل في المجتمع

(من آل عمران ٩٢ إلى النساء ٢٣)

المقدمة

ينسج الجزء الرابع خيطين عظيمين من هداية القرآن:

وحدة الأمة و **العدل في الأسرة والمجتمع**.

ويُبرز أن قوّة الأمة المسلمة تقوم على أساسين متكاملين:

1. وحدة داخلية مبنية على التمسك بالوحي.
2. عدل منضبط برحمة في العلاقات الاجتماعية والأسرية.

هذه الدروس خالدة، تهدي الأفراد والمجتمعات إلى الإيمان الراسخ، والصلابة في الشدائد، والإنصاف في التعامل. ويعلّمنا هذا الجزء أن القوة الحقيقية تنبع من **وحدةٍ راسخة على التقوى**، ومن **عدلٍ يختلط بالشفقة والرحمة**.

1. الحذر من الفرقة والتمسك بحبل الله

الوحدة في الإسلام ليست خياراً ثانوياً، بل هي **أمر إلهي** وعلامة من علامات التقوى. ولا تتحقق الوحدة إلا بالاعتصام بحبل الله، أي بالوحي وما ينبني عليه من قيم. أما أسباب الفرقة فغالبها يدور حول: حب الذات، التنافس الدنيوي، الكبر، والحسد. وعلاج ذلك هو العودة إلى حبل الله وقيم التقوى: الكرم، العفو، والتواضع.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ (١٠٢) وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْ... (آل عمران: ١٠٢–١٠٣)

وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ (آل عمران: ١٠٥)

ثم يبيّن القرآن أن قاعدة القيم المشتركة بين المؤمنين هي **التقوى**، ويصف أهلها بصفات عملية: الإنفاق في السراء والضراء، كظم الغيظ، العفو عن الناس، وعدم الإصرار على المعصية بعد الوقوع فيها، كما في الآيات (١٣٣–١٣٥) من سورة آل عمران.

وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ (١٣٣) ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ (١٣٤) وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ (أل عمران ١٣٣ . ١٣٥)

2. الخيرية مرتبطة بالإيمان والفطرة السليمة

شرف الأمة المسلمة وكونها **خير أمة** ليس مجرّد شعار، بل مبنيّ على أمرين:
الإيمان بالله، والعيش وفق الفطرة السليمة التي تميّز بين المعروف والمنكر.
كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ (آل عمران: ١١٠)

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هنا ليس فرضاً لآراء فقهية محل اجتهاد وخلاف معتبر، بل هو تعبّدٌ لله بالثوابت الأخلاقية الكبرى التي تقبلها الفطرة السليمة في كل زمان ومكان. واحترام الاختلاف الفقهي المنضبط داخل الأمة هو جزء من الوحدة، وليس تهديداً لها.

3. الرحمة والحِلْم في القيادة

القيادة في الإسلام ليست تسلّطاً ولا غلبة قهر، بل **كسبٌ للقلوب** .وقد مدح الله نبيه ﷺ برحمة قيادته، ولينه مع أصحابه، وجعل ذلك سبب اجتماعهم حوله.
فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ (آل عمران: ١٥٩)

وكلمة **»فَظّ «**في أصلها تُستعمل للماء الخشن الذي يُستخرج من بطون الإبل؛ ماءٌ ينقذ حياة الإنسان في الصحراء، لكنه غير مستساغ. كذلك النصح: قد يكون ضرورياً، لكن إذا قُدِّم بقسوة نفر الناس عنه، مهما علموا أنه حق.
ومن الرحمة في القيادة: إتاحة الفرصة للجميع لإبداء الرأي، ثم بعد الشورى حين يُتّخذ القرار يكون الجميع ملتزماً به، لأنه شارك في صناعة القرار لا في تلقّيه فقط.

4. التفكر في الكون عبادة وبناء حضارة

التأمل في خلق السماوات والأرض، وتعاقب الليل والنهار، ليس ترفاً فكرياً بل **ذكر وعبادة**، وهو في الوقت نفسه محرّك للعلم وعمارة الأرض.
إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ (آل عمران: ١٩٠)

لقد ازدهرت الحضارة الإسلامية عندما جمع المسلمون بين **الإيمان العميق** و**الاجتهاد العلمي**، فدرسوا الفلك والطب والرياضيات وسائر العلوم، وهم يرون الكون كتاباً مفتوحاً من آيات الله.

5. الحماية الحقيقية للأبناء

حماية الأولاد في المنظور القرآني لا تقوم على حجم المال الذي يُورّث لهم، بل على **تقوى الوالدين وعدلهم** .المال قد يذهب، أما أثر التقوى فيبقى.

وَلۡيَخۡشَ ٱلَّذِينَ لَوۡ تَرَكُواْ مِنۡ خَلۡفِهِمۡ ذُرِّيَّةٗ ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيۡهِمۡ فَلۡيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡيَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدًا (النساء: ٩)

والتاريخ يقدّم مثالاً بديعاً: الخليفة **عمر بن عبد العزيز** ترك مالاً قليلاً ولكن ترك لأبنائه التقوى، ففتح الله لهم أبواب الخير. بينما ترك **هشام بن عبد الملك** ثروة عظيمة، ومع ذلك انتهى بعض أبنائه إلى الفقر والذل. (انظر الملحق في آخر الفصل).

6. الثقة بالنصر من صدق الإيمان

النصر عطية من الله يُعطيها لعباده المخلصين الذين جمعوا بين الإيمان والصبر والتقوى. في **بدر** كان المسلمون قلة وضعفاً، ومع ذلك نصرهم الله.

وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٖ وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ (آل عمران: ١٢٣)

وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ (آل عمران: ١٢٦)

أما الهزيمة فهي مؤقتة، ومهمتها أن تفتح باب المراجعة والتوبة وتجديد النية:

وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ (آل عمران: ١٣٩)

7. حكمة الابتلاء: النصر والهزيمة كلاهما امتحان

تقلبُّ الأيام بين نصر وهزيمة ليس عبثاً؛ بل هو من **سنن الله** في اختبار الصادقين، ورفع درجات الشهداء، وتمحيص المؤمنين، وكشف حقيقة المنافقين، وازالة الباطل المتكبر.
إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ (١٤٠) وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ (١٤١) أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ (١٤٢) (آل عمران: ١٤٠–١٤٢)

فالابتلاء غربال: يُظهر من هو ثابت مع الله حقاً، ومن يتزعزع عند أول ريح.

8. اليقين بالمصير والرجوع إلى الله

أعظم حقائق الحياة :**الموت محتوم** .كل شيء يفنى، ولا يبقى للعبد إلا عمله.

كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ (آل عمران: ١٨٥)

بهذا الميزان يُصبح النجاح الحقيقي: النجاة من النار ودخول الجنة. والذكر الدائم للموت يزكّي القلب من التعلّق الزائد بالدنيا، ويقوّي خلق البذل والتواضع والتقوى.

9. التوازن بين العدل والرحمة

تفتتح سورة النساء بالحديث عن **العدالة والرحمة**، خاصة تجاه الفئات الأضعف في المجتمع: النساء، الأرامل، الأيتام. فقوة المجتمع تُقاس بطريقة تعامله مع الضعفاء.
حتى لو فترت المودّة بين الزوجين، يبقى التكليف الإلهي: المعاشرة بالمعروف، والصبر على ما يكره الإنسان، رجاء ما يخرجه الله من الخير.

وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا (النساء: ١٩)

وحتى لو أراد الرجل أن يستبدل زوجة بأخرى، يمنعه الله من الظلم وأكل أموال النساء بالباطل:

وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا (النساء: ٢٠)

كما يعالج الجزء مشكلة الأرامل ذوات الأولاد: فلكي يستطيع قريبٌ أو رجل صالح أن يرعى الأيتام رعاية مباشرة، يحتاج إلى رابطة شرعية بأمّهم، ولذلك جاء الربط بين **تعدد الزوجات** و**رعاية اليتامى**، لا لمجرد الهوى الشخصي، ثم قُيّد ذلك بالعدل الصارم:

وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَـٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَـٰثَ وَرُبَـٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟ (النساء: ٣)

الجوهرة هنا :**العَدل إطار، والرحمة روحٌ لهذا الإطار** .في الزواج، والتربية، ورعاية اليتامى، يجب أن يسير الإنصاف جنباً إلى جنب مع الرِقّة والروح الإنسانية.

10. نظام الميراث: عدلٌ مُفصَّل لا تفضيلٌ أعمى

جاءت آيات الميراث لتضع نظاماً واضحاً يمنع الظلم والنزاع:

لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا (النساء: ٧)

وخلافاً للصورة الشائعة "الذكر دائماً أكثر من الأنثى"، يكشف التدقيق الفقهي أن نظام الميراث الإسلامي نظام **دقيق ومتشعب** يراعي:

- درجة القرابة.
- طبقة الجيل (أب/ابن/أخ... إلخ).
- المسؤوليات المالية (النفقة، المهر، إلخ).

وقد بيّنت الدراسات الفقهية أن الحالات ليست نمطاً واحداً؛ فهناك حالات:

- يرث فيها الذكر أكثر.
- وحالات يتساوى فيها الذكر والأنثى.
- وحالات ترث فيها المرأة أكثر من الرجل.

إنه **نظام عدالة** لا نظام محاباة؛ كل نصيب مراعًى فيه موقع الشخص ومسؤولياته، لضمان حفظ الحقوق ومنع التنازع داخل الأسرة.

خلاصة الجواهر في هذا الجزء

- **الوحدة :**الاعتصام بحبل الله، والحذر من الفرقة.
- **الخيرية الحقيقية :**إيمان وتقوى وفطرة سليمة، لا شعارات قومية أو عصبيات.
- **القيادة الرحيمة :**اللين، العفو، الشورى، مع توكّل على الله.
- **التفكر في الكون :**عبادة تبني الإيمان وتُطلق مسيرة العلم والحضارة.
- **حماية الأبناء :**في التقوى لا في تراكم الأرصدة.
- **النصر والهزيمة :**كلاهما امتحان؛ النصر هدية للإيمان الصادق، والهزيمة جرس إنذار للمراجعة.
- **المصير المحتوم :**كل نفس ذائقة الموت، والفوز الحقيقي النجاة من النار ودخول الجنة.
- **العدل مع الرحمة :**خصوصاً مع النساء والأرامل واليتامى.
- **الميراث :**نظام ربّاني متوازن يحفظ حقوق الرجال والنساء معاً.

الملحق: نموذج عملي لتقوى الوالد وإرث الأبناء

دخل مقاتل بن سليمان على الخليفة العباسي : ابو جعفر المنصور، فقال له "المنصور" عِظني يا "مقاتل."
فقال: أعظُك بما رأيت أم بما سمعت
_قال : بل بما رأيت!!
قال يا أمير المؤمنين إن الخليفة الأموي : عمر بن عبد العزيز أنجب أحد عشر ولداءِ وترك ثمانية عشر ديناراءِ ،كُفّنَ بخمسة دنانير ،واشتُريَ له قبر بأربعة دنانير وَوزّع الباقي على أبنائه.
الخليفة الأموي :هشام بن عبد الملك أنجب أحد عشر ولدا،وكان نصيب كلّ ولدٍ من التركة الف الف دينار والله... يا أمير المؤمنين : لقد رأيت في يومٍ واحدٍ أحد أبناء عمر بن عبد العزيز يتصدق بمائة فرس للجهاد في سبيل الله ، وأحد أبناء هشام يتسول في الأسواق.
وقد سأل الناس عمر بن عبدالعزيز وهو على فراش الموت : ماذا تركت لأبنائك يا عمر ؟

قال: تركت لهم تقوى الله، فإن كانوا صالحين فالله تعالى يتولى الصالحين ، وإن كانوا غير ذلك فلن أترك لهم ما يعينهم على معصية الله تعالى.
(المصادر البداية والنهاية - ابن كثير سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز الخليفة الزاهد - ابن الجوزي)

جواهر من الجزء الخامس: الرحمة، الأمانة، والعدل المطلق
(النساء ٤: ٢٤–١٤٧)

المقدمة
يرسم هذا الجزء الضوابط الحامية لسلامة النفس، والأسرة، والمجتمع. فهو يدعو المؤمنين إلى الشكر والرضا، ويُظهر أن الشريعة الإلهية جاءت للتيسير وقبول التوبة، لا للتعسير، وأنها ترسم خطوات حكيمة لمعالجة الشقاق الزوجي. كما تأمر بأداء الأمانات والحكم بالعدل، وتدافع عن المستضعفين، وتُقدِّس حياة كل مؤمن، وتحصر النجوى والحديث السري في الصدقة والمعروف والإصلاح بين الناس. وحتى الصلاة تتكيّف مع السفر والخوف، لتبقى صلة العبد بربه مستمرة لا تنقطع، يستمد بها العون والهداية.

1. التركيز على النِّعم: دواء لمرض التبرُّم والسخط

يأمر الله المؤمنين أن ينظروا إلى ما آتاهم من النعم، وألا ينشغلوا بالحسد وتمنّي ما لدى غيرهم:

وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَۚ وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا (النساء: ٣٢)

فحقيقة الرضا تنبع من الشكر والثقة بحكمة الله في تقسيم الأرزاق والقدرات، لا من مقارنة النفس بالآخرين. أما التطلّع لما في أيدي الناس فيُولّد الحسد ويُغذّي السخط ويُضعف اليقين.

2. إرادة التيسير والرحمة في الشريعة

هداية الله ليست لإثقال كاهل الإنسان، بل لتجلية الحلال والحرام، وفتح باب التوبة، والتخفيف عن ضعف الإنسان:
يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٦) وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا (٢٧) يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا (النساء: ٢٦–٢٨)

ويبيّن القرآن الفرق بين **الكبائر** و**الصغائر**، ليظهر أن الشريعة إطار رحمة:
إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا (النساء: ٣١)

فالشريعة عمليّة، تراعي الضعف البشري، وتُراد لهداية الإنسان لا سحقه.

3. جذور الشقاق الأسري: الكِبْر والتعالي

من أعقد الموضوعات في هذا الجزء :**توازن السلطة والاحترام داخل الأسرة**.
انسجام الحياة الزوجية قائم على الاحترام المتبادل والتواضع. ويتولّد الشقاق حين يدخل الكِبْر أو شعور

التفوق إلى العلاقة، من جانب الزوج أو الزوجة. ويستخدم القرآن اصطلاح **النشوز** (نُشُوز) بمعنى "الاستعلاء والارتفاع عن موقع المودّة والرحمة"، لوصف هذا السلوك المدمِّر.

أ) إذا كان النشوز من جانب الزوجة

يرسم القرآن خطوات تدريجية مضبوطة:

وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا (٣٤) وَإِنۡ خِفۡتُمۡ شِقَاقَ بَيۡنِهِمَا فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرٗا (٣٥) (النساء: ٣٤–٣٥)

فالمراتب كما يلي:

1. **الموعظة** :النصح بالحسنى وبيان خطورة الاستعلاء على الحياة الزوجية.
2. **الهجر في المضجع** :إظهار عدم الرضا، دون إهانة أو تشهير.
3. **الضرب كمرحلة أخيرة** :وقد جاء النبي ﷺ بقيود شديدة تجعلها أقرب إلى إشارة رمزية لا إلى إيذاء بدني، بل وفتح باب تركها بالكلية.

قال ﷺ:

«لَا تَضْرِبُوا إِمَاءَ اللَّهِ» رواه أبو داود وابن ماجه وغيرهما

وقال ﷺ في بيان حق الزوجة:

«... أَنْ تُطْعِمَهَا إِذَا طَعِمْتَ، وَتَكْسُوهَا إِذَا اكْتَسَيْتَ، وَلَا تَضْرِبِ الْوَجْهَ، وَلَا تُقَبِّحْ، وَلَا تَهْجُرْ إِلَّا فِي الْبَيْتِ» (أبو داود)

كما وجّه إلى وسائل عملية لكسر حدّة الغضب قبل أن يتحول إلى أذى:

«إِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ وَهُوَ قَائِمٌ فَلْيَجْلِسْ، فَإِنْ ذَهَبَ عَنْهُ الْغَضَبُ وَإِلَّا فَلْيَضْطَجِعْ» (أحمد وأبو داود)

كل هذا يشير إلى أن المقصود هو **تبريد الغضب وضبط النفس**، لا فتح باب العنف.

وتُظهِر الإحصاءات الحديثة في مجتمعاتٍ لا ضوابط شرعية فيها لحدود التعامل الأسري، انتشار العنف المنزلي بنِسَبٍ مخيفة؛ حيث تتعرض نسبة كبيرة من النساء للعنف من شريك الحياة. بينما يرسم القرآن مساراً منظَّماً، متدرِّجاً، محاطاً بسياج نبوي من الرحمة، ليُوجّه النزاع نحو الإصلاح لا الإساءة.

ب) إذا كان النشوز من جانب الزوج

لا ينحاز القرآن لطرفٍ على حساب آخر، فإذا كان التقصير أو الاستعلاء من الرجل، وجَّه إلى طريق الصلح والتسوية:

وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحٗاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا (النساء: ١٢٨)

فالقرآن يعترف بطبيعة النفس البشرية وما فيها من شُحّ وأنانية، لكنه يفرض إطاراً من **العدل والإحسان**، ويحثّ على السعي للإصلاح ما أمكن، وجعل **الصلح خيراً**، وجعل التقوى والإحسان أساساً لأي تنازل أو تسوية.

4. أداء الأمانات وإقامة العدل

من أعمدة الأخلاق القرآنية :**أداء الأمانة** و**العدل المطلق**:

إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا (النساء: ٥٨)

وهذا يشمل أمانات المال، وأمانات المناصب والولاية، وأمانات الشهادة والوساطة. حتى الشفاعة لها تبعة:
مَّن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةً حَسَنَةٗ يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةٗ سَيِّئَةٗ يَكُن لَّهُۥ كِفۡلٞ مِّنۡهَاۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقِيتًا (النساء: ٨٥)

وبيّن النبي ﷺ خطورة التلاعب في الأموال:
«مَنْ أَخَذَ أَمْوَالَ النَّاسِ يُرِيدُ أَدَاءَهَا أَدَّى اللَّهُ عَنْهُ، وَمَنْ أَخَذَهَا يُرِيدُ إِتْلَافَهَا أَتْلَفَهُ اللَّهُ» (البخاري)

5. المسؤولية في مواجهة الظلم

يربط القرآن بين الجهاد وبين حماية **المستضعفين** من الرجال والنساء والولدان:

وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهۡلُهَا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا (النساء: ٧٥)

ومع ذلك لا يعفي القرآن الأفراد من المسؤولية عن أنفسهم؛ فمن قَدَر على الهجرة والخروج من أرض الظلم فلم يفعل، حوسب على تقصيره:

إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا (٩٧) إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ حِيلَةٗ وَلَا يَهۡتَدُونَ سَبِيلٗا (٩٨) فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعۡفُوَ عَنۡهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوّٗا غَفُورٗا (٩٩) (النساء: ٩٧–٩٩)

فالتوازن هنا بديع :**مسؤولية جماعية** لحماية الضعفاء، و**مسؤولية فردية** في السعي للخلاص متى أمكن، مع عذر من عجز تماماً.

6. مبدأ المعاملة بالإحسان

يدعو القرآن إلى جعل الإحسان قاعدة التعامل اليومي:

وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَسِيبًا (النساء: ٨٦)

فالمؤمن معيار في الأخلاق: يُحسن الرد على التحية، ويتفوّق في الكلمة الطيبة، وحُسن المناظرة والضيافة، ويجعل الأصل في تعامله أن يُقابل الخير بخيرٍ أفضل، والشرّ بالعدل أو العفو.

7. حرمة دم المؤمن

يعطي القرآن لحرمة النفس المؤمنة وزناً هائلاً:
وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمٗا (النساء: ٩٣)

وقال ﷺ وهو يطوف بالكعبة:
«مَا أَطْيَبَكِ وَأَطْيَبَ رِيحَكِ، مَا أَعْظَمَكِ وَأَعْظَمَ حُرْمَتَكِ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَحُرْمَةُ الْمُؤْمِنِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ حُرْمَةً مِنْكِ، مَالِهِ وَدَمِهِ...» (ابن ماجه)

وقال أيضاً:
«لَزَوَالُ الدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ قَتْلِ مُؤْمِنٍ بِغَيْرِ حَقٍّ» (ابن ماجه)

فلا عجب أن يكون الدم المعصوم في شريعة الإسلام خطاً أحمر لا يُتجاوز.

8. النجوى: لا خير فيها إلا لما فيه معروف

يُضيّق القرآن دائرة الحديث السرّي، فلا يرضى أن تكون مجالاً للتآمر أو الغِيبة، بل يجيزها إذا كانت وسيلةً للخير:
لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا (النساء: ١١٤)

فالسرية في الإسلام ليست ستاراً للإفساد، بل أداة لحماية مشاعر الناس في مساعي الإصلاح والصدقة والمعروف.

9. العدل المطلق: فوق كل انتماء

العدل في الرؤية القرآنية **غير قابل للمساومة**، ولو كان على حساب النفس أو الأقارب:

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (النساء: ١٣٥)

وقد نزلت آيات (النساء: ١٠٥–١١٣) في حادثة **بشير بن أبيرق** الذي سرق سلاحاً وأراد أن يُلصق التهمة بجاره اليهودي، فكادت ضغوط العصبية أن تُحرِّف مسار الحكم، فجاء الوحي يبرّئ البريء ويدين الخائن:
إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا (النساء: ١٠٥)

يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا (١٠٨) هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ جَـٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَـٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا (النساء: ١٠٨–١٠٩)

وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا (النساء: ١١٢)

وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا (النساء: ١١٣)

هنا يؤكّد القرآن أن لا قبيلة ولا دين ولا قرابة تُعفي من المساءلة، وأن **العدل فوق كل ولاء**.

10. مكانة الصلاة في الإسلام

الصلاة عمود الدين وأقوى صلة بين العبد وربه، ولا تُسقطها الشريعة حتى في أحلك الظروف، بل تُخفّف صفتها وتبقي حقيقتها:

وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْۚ إِنَّ ٱلْكَـٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا (النساء: ١٠١)

وبيّن النبي ﷺ أن مجرد السفر سببٌ لقصر الصلاة حتى في حال الأمن. وفي أقصى حالات الخوف، تتكيّف الصلاة مع الواقع:
فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا.. (البقرة: ٢٣٩)

فالمقصود أن تبقى الصلاة **مرساةً ثابتةً للقلب** في كل الأحوال، لا طقساً شكلياً يسقط عند أول مشقة.

جواهر من الجزء السادس: الخُلُق، العهود، والكمال الإلهي

(النساء ٤: ١٤٨ – المائدة ٥: ٨١)

المقدمة

يقدِّم الجزء السادس دروسًا عميقة تُشكِّل خُلُق الفرد وتقوِّي بناء المجتمع. يتناول قوة الكلمة، ودور الوحي، والعدل، والعهود، وكمال الدين، وحرمة الحياة، ورابطة المحبة بين الله وعباده.

١ .حراسة اللسان في الخطاب العام

للكلام قوة هائلة؛ يمكن أن يشفي أو يؤذي، يبني أو يهدم. وحتى عند التعرّض للظلم، يُطالَب المؤمن بأن يُقيِّد لسانه بالحق والعدل لا بروح الانتقام:

لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلۡجَهۡرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ إِلَّا مَن ظُلِمَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا (النساء: ١٤٨)

وقال النبي ﷺ:

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **«مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ» (البخاري ومسلم)**
فالمؤمن يجعل الأصل في كلامه النفع، فإن لم يجد فيه خيرًا سَكَت.

٢ .الإيمان بالرسل جميعًا سلسلة واحدة من الحق

يقتضي الإيمان التصديق بجميع رسل الله، فهم حلَقَات في سلسلة واحدة من الحق. أما التفريق بينهم إيمانًا ببعض وكفرًا ببعض فهو كفر بالله ورسله:

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا (١٥٠) أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا (النساء: ١٥٠–١٥١)
احترام جميع الرسل يعمِّق إدراك تماسك الرسالة الإلهية، ويزرع في قلب المؤمن تواضعًا أمام الحق.

٣ .القرآن وحيٌ يشهد له الله بنفسه

يمتاز القرآن بأن الله تعالى شهد بنفسه بأنه كلامه الذي أنزله على محمد ﷺ:

لَّـٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَـٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا (النساء: ١٦٦)

هذه الشهادة الإلهية تزرع اليقين الراسخ بأن القرآن حق من عند الله.

٤ .القرآن برهانٌ ونور

القرآن **برهان** قاطع، و**نور** جليّ يزيل الحيرة ويهدي للنجاح في الدنيا والآخرة:

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَـٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا (النساء: ١٧٤)

كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَـٰبٞ مُّبِينٞ (المائدة: ١٥)

على المؤمن أن يتعامل مع القرآن لا طلبًا للبركة فقط، بل باعتباره المرجع الحاسم في العقيدة والسلوك وحلّ المشكلات.

٥ .الوفاء بالعقود والعهود

تفتتح سورة المائدة بالأمر العام بالوفاء بالعقود، مع الله ومع الناس.
فعقود العبد مع الله تشمل توحيده وطاعته وترك الشرك، وعقوده مع الناس تشمل المعاملات والوعود والعهود والاتفاقيات:

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ (المائدة: ١)

نقض العهود يهدم المجتمعات، والوفاء بها يحفظها.
وقال النبي ﷺ:

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **«آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ» (متفق عليه)**

٦ .كمال الدين الإسلامي

مع تمام نزول الوحي أعلن الله كمال دينه وإتمام نعمته ورضاه بالإسلام منهجًا نهائيًّا للبشر:

ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ (المائدة: ٣)

تُثبِت هذه الآية أن الإسلام دين كاملٌ صالح لكل زمان ومكان، لا يحتاج إلى زيادة في أصوله ولا يسمح بنقصانٍ منها.

٧ .العدل والإنصاف حتى مع الأعداء

العدل في الإسلام فوق كل عاطفة أو عصبية، حتى مع من نُبغِضهم:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ (المائدة: ٨)

فالعدالة هي طريق التقوى، حتى في حال الغضب والخلاف.

٨ .حرمة الحياة الإنسانية

الحياة الإنسانية مُقدّسة، وقتل نفس واحدة ظلمًا كقتل الناس جميعًا، وإنقاذها كإنقاذ البشرية كلها:

مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ (المائدة: ٣٢)

هذه القاعدة تُشكّل أساس التزام الإسلام بحفظ الحياة عبر العدل، والصدقة، والطب، وحماية الضعفاء.

(ملاحظة: أورد النص إشارة إلى ألفاظ قريبة في التلمود، مع وجود تمييزٍ عند بعضهم بين دمّ "إسرائيلي" وغيره، مما يُبرِز عالمية القاعدة القرآنية في مقابل التمييز البشري.)

٩ .العلاقة الحقيقية مع الله علاقة محبة

الرابطة بين الله وعباده الصادقين ليست رُهبةً فقط، بل محبة متبادلة:

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ... (المائدة: ٥٤)

المحبة هي الوقود الذي يولّد التواضع للمؤمنين، والثبات أمام أعداء الحق، والاستعداد للجهاد في سبيل الله.

١٠. التزام الشرائع الإلهية: تكليفٌ عام

جميع الرسل جاؤوا بدين واحد في جوهره: التوحيد والعمل الصالح، واختلفت الشرائع التفصيلية باختلاف الأقوام والأزمنة:

لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗا.. (المائدة: ٤٨)

طُلب من النبي ﷺ أن يحكم بين المسلمين بما أنزل الله عليه، وأُمر أهل التوراة والإنجيل أن يلتزموا بما أُنزل إليهم:

وَكَيۡفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوۡرَىٰةُ فِيهَا حُكۡمُ ٱللَّهِ... (المائدة: ٤٣)

وَلۡيَحۡكُمۡ أَهۡلُ ٱلۡإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ... (المائدة: ٤٧)

ثم وبّخهم على تركهم أحكام كتبهم:

قُلۡ يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ... (المائدة: ٦٨)

خاتمة

ينسج الجزء السادس نسيج الإيمان خُلُقًا ومجتمعًا؛ فيربط بين العقيدة والعدل والرحمة والمحبة تحت ميثاقٍ إلهي واحد. يعلّم أن الكلمة يجب أن تشفي لا أن تجرح، وأن الوحي يُؤخَذ جملة لا انتقاءً، وأن العهود تُحفَظ بلا خيانة، وأن العدل لا يرضخ للغضب ولا للتحيز.

حرمة الحياة، وكمال الدين، ورابطة المحبة بين الله وعباده، كلها تؤكد رسالة الإسلام: أن ينير القلوب والمجتمعات بحكمة الوحي. فإذا تجسدت هذه المعاني في المؤمنين صاروا مرآةً لنور القرآن؛ يحفظون الحق، ويؤدّون الأمانة، ويشهدون بعدل الله في الأرض.

جواهر من الجزء السابع: تأملات في الإحاطة الإلهية والبصيرة الأخلاقية

(المائدة ٥: ٨٢ – الأنعام ٦: ١١٠)

المقدمة

يكشف الجزء السابع رحلة في رحاب الوعي بالله والبصيرة الأخلاقية. يعلّم أن كل أمر – اعتقادًا كان أو قولًا أو عملًا – لا بد أن يُبنَى على الصدق والإخلاص. يؤكد الوفاء بالعهود، وتعظيم الوحي، وامتحان النعمة، ويُرسِّخ يقين الإحاطة الإلهية. يفضح وهم الاستغناء الدنيوي، ويواسي الدعاة إلى الحق، ويذكّر بأن الخلق لم يُوجَد عبثًا بل بالحق.

وأعلى ما يثبته هذا الجزء أن الإيمان يتجذر في وعيٍ بأن الله وحده يرى كل شيء، ويملك كل شيء، ويحكم بالحق بما أحاط علمُه بالغيب والشهادة.

١ .كفّارة الأيمان

ليست الأيمان مجالًا للّعب؛ فإذا عُقِدت عن قصد وجب إمّا الوفاء بها أو التكفير عن نقضها بما شرع الله:

لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلۡأَيۡمَٰنَۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطۡعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنۡ أَوۡسَطِ مَا تُطۡعِمُونَ أَهۡلِيكُمۡ أَوۡ كِسۡوَتُهُمۡ أَوۡ تَحۡرِيرُ رَقَبَةٖۖ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيۡمَٰنِكُمۡ إِذَا حَلَفۡتُمۡۚ وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ (المائدة: ٨٩)

تُبيِّن الآية أربع صور للكفارة، الثلاث الأولى على سبيل التخيير، والرابعة عند العجز عن الأولى:

١ .إطعام عشرة مساكين من متوسط ما يطعم الإنسان أهله.
٢ .أو كسوتهم.
٣ .أو تحرير رقبة.
٤ .فإن لم يجد، صام ثلاثة أيام.

ويؤكد الفقهاء أن الكفارة خاصة بنقض اليمين المعقودة، لا بمجرد عدم الوفاء بوعد أو تقصير في التزامات قانونية لها أحكام أخرى.

٢ .الكتاب المنزل والكتاب الأصل

يذكر الله نعمة تعليم عيسى عليه السلام :**الكتاب، والحكمة، والتوراة، والإنجيل** في موضع واحد، مما يدل على تميّز "الكتاب" عن التوراة والإنجيل:

إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱذۡكُرۡ نِعۡمَتِي عَلَيۡكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذۡ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗاۖ وَإِذۡ عَلَّمۡتُكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ... (المائدة: ١١٠)

وفي البقرة تفريق بين **الكتاب** الذي هو هدى للمتقين، و**القرآن** الذي هو هدى للناس:

ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ (البقرة: ٢)

شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ... (البقرة: ١٨٥)

واستعمال اسم الإشارة البعيد **ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَابُ** لا **هذا الكتاب** يُوحي بالإشارة إلى كتابٍ عالٍ غيبي، هو المرجع الأصل، وربما إشارة إلى **اللوح المحفوظ**.

تذكر آيات أخرى اقتران "الكتاب" بالقرآن:

وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ أَن يُفۡتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (يونس: ٣٧)

الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ (الحجر: ١)

كما تذكر آيات عديدة **كتابًا مبينًا** يحصي كل شيء:

وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ (الأنعام: ٥٩)

وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ (يونس: ٦١)

وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ (هود: ٦)

يُفهَم من ذلك أن القرآن هو **البيان اللفظي الهادي للبشر**، المأخوذ من "الكتاب الأم"، وأن "أمّ الكتاب" وعاء شامل للسنن والقوانين والتقديرات. ولا يَتيسّر من هذه الأسرار إلا ما يفتح الله به على من اتّقاه:

وَاتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ (البقرة: ٢٨٢)

ومن شواهد ذلك قصة الذي عنده علم من الكتاب فجاء بعرش بلقيس في طرفة عين:

قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلۡمٌ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَ... (النمل: ٤٠)

وفي الرعد:

يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ (الرعد: ٣٩)

فالقرآن إذن هو الجزء الموحى للبشر من أمّ الكتاب، يهدِيهم، بينما يبقى الأصل الكامل عند الله وحده.

٣ .الصدق: معيار النجاح عند الله

في يوم القيامة، لا ينفع إلا الصدق؛ هو رأس مال السعداء:

قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِى مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ (المائدة: ١١٩)

وقال النبي ﷺ:

«إنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إلى البِرِّ، وإنَّ البِرَّ يَهْدِي إلى الجَنَّةِ، وإنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حتَّى يَكونَ صِدِّيقًا. وإنَّ الكَذِبَ يَهْدِي إلى الفُجُورِ، وإنَّ الفُجُورَ يَهْدِي إلى النَّارِ، وإنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا» (متفق عليه)

وسُئل ﷺ:

«أَيَكُونُ الْمُؤْمِنُ جَبَانًا؟» قال: «نَعَمْ».
قِيلَ: «أَيَكُونُ الْمُؤْمِنُ بَخِيلًا؟» قال: «نَعَمْ».
قِيلَ: «أَيَكُونُ الْمُؤْمِنُ كَذَّابًا؟» قال: «لَا». (موطأ مالك)

والصدق ثمرة **قلبٍ سليم**:

يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (الشعراء: ٨٨–٨٩)

٤ .لله ملك كل شيء، وهو السميع العليم

كل ما في الكون ملك لله، وهو المحيط علمًا وحاجةً بكل مخلوق:

وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ (الأنعام: ١٣)

لفظ **سكن** يشير إلى السكون الحسي، كما يذكّر بمعنى السكينة القلبية. فمعرفة أن الله مالك الليل والنهار وما يسكن فيهما، تسمح للقلب أن يطمئن لسمع الله وعلمه.

ثم يقرّر القرآن عجز الأبصار عن إدراك ذات الله، مع إحاطة الله بكل شيء:

لَا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ (الأنعام: ١٠٣)

٥ .امتحان السَّعَة

الحياة الدنيا امتحانٌ بالعسر أحيانًا وباليُسر أحيانًا أخرى. ويحذِّر هذا الجزء من خطر الغفلة حين يتتابع الخير على العصاة:

فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَـٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ (الأنعام: ٤٤)

ومن التأمل يمكن تقسيم أحوال الناس إلى أربعة:

١ .طائع لله وسعيد في حياته.
٢ .طائع لله وتعيس في حياته.
٣ .عاصٍ لله وسعيد في حياته.
٤ .عاصٍ لله وتعيس في حياته.

الأول :وعده الله بالحياة الطيبة:

مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً... (النحل: ٩٧)

فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ (طه: ١٢٣)

الثاني :طائع يُبتلى في دنياه، وبلاؤه رفعة في الآخرة:

وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ (البقرة: ١٥٥)

الثالث :عاصٍ منَعَّم؛ أخطر الحالات، إذ النعمة هنا استدراج:

فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ (الأنعام: ٤٤)

الرابع :عاصٍ مع الذل والشقاء، وهذا عدل أيضًا:

وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ (طه: ١٢٤)

ومع ذلك قد تكون هذه الشدائد رحمة توقظ صاحبها:

وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (السجدة: ٢١)

٦ .الخلق حقٌّ لا وهم

يُصرّح القرآن بأن الله خلق السماوات والأرض **بالحق**، لا على سبيل الوهم أو المحاكاة الافتراضية:

وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ... (الأنعام: ٧٣)

وتكرار عبارة **بِالْحَقِّ** في سياق الخلق يؤكد أن الوجود حقيقي ومقصود، لا "محاكاة رقمية" عابثة. ويقول تعالى:

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا (ص: ٢٧)

فالكون ساحة ابتلاء حقيقي، لا لعبة أو وهم.

٧ .الفطرة السليمة تقود إلى الله

يبيّن لنا إبراهيم عليه السلام كيف هدتْه فطرته إلى التوحيد قبل الوحي التفصيلي. راقب الكواكب والقمر والشمس، واستدلّ بأفولها على بطلان ألوهيتها:

فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَـٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (الأنعام: ٧٦)

ثم انتهى إلى قوله:

إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (الأنعام: ٧٩)

فالفطرة السليمة والعقل المتدبِّر يقودان صاحبهما – إذا خلص من العادات والهوى – إلى معرفة الربّ.

٨ .تسلية الدعاة إلى الله

يتأذى الداعية حين يُكذَّب ويُستهزأ به، فيواسيه القرآن:

قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (الأنعام: ٣٣)

الرفض موجَّه في حقيقته إلى آيات الله لا إلى الشخص. مهمة الداعية البلاغ والبيان، لا ضمان الهداية.

٩ .الانفراد بين يدي الله

سيَقِف كل إنسان أمام الله وحده، بلا شريك ولا نصير، فيرى حقيقة ما كان يظنه من شفعاء وأنداد:

وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (الأنعام: ٩٤)

لذلك يطالب القرآن دائمًا بالبرهان:

قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (البقرة: ١١١)

قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَا... (الأنعام: ١٤٨)

إشارة إلى أن الإيمان لا يُبنَى على التقليد الأعمى، بل على علمٍ وحجة.

١٠ .أدب الحديث عن عقائد الآخرين

ينهى الله المؤمنين عن سبّ آلهة المشركين، لأن ذلك يستجرّ سبّ الله تعالى جهلًا:

وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖ... (الأنعام: ١٠٨)

فأدب الحوار في الإسلام قائم على الحكمة ولطف الخطاب:

ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ... (النحل: ١٢٥)

الغرض إقناع العقول والقلوب، لا كسر الخصم أو توهينه.

خاتمة

يختتم الجزء السابع بنفخ روح اليقظة في القلب والعقل؛ فآياته تذكّر بأن الحقيقة الإلهية تحيط بكل شيء: في الغيب والشهادة، في النعمة والبلاء، في الفطرة والوحي، في صدق الكلمة ووزنها يوم القيامة.

من عاش بالصدق، والشكر، ومراقبة علم الله، وجد طمأنينةً في النعمة، وصبرًا في الشدة. والوجود نفسه يشهد أن الحياة حق، لها غاية وحساب، وأنها ليست وهمًا حاسوبيًا ولا لعبة عابرة؛ بل خَلْقٌ بالحق، لربٍّ لا تُدرِكه الأبصار وهو يدرك الأبصار.

جواهر من الجزء الثامن: تأملات في الوحي، والإصلاح، والصراط المستقيم

(الأنعام ٦: ١١١ – الأعراف ٧: ٨٧)

المقدمة

يقدّم الجزء الثامن رؤيةً بانورامية لنظام الله في الكون، ينسج فيها صفاء العقيدة مع الهداية الأخلاقية وفلسفة المسؤولية الإنسانية. وفي هذه الآيات يقرر الله مبادئ خالدة تضبط سلوك الإنسان، وتؤسس لوحدة الجماعة، وتُصلح الباطن بإخلاص النية واستقامة القلب.

يدعو هذا الجزء المؤمنين إلى أن يفكروا باستقلال، وأن يعملوا بأمانة، وأن يعيشوا في خضوع واعٍ للحق الإلهي. وهو يقابل بين الكِبْر والتواضع، وبين التقليد الأعمى والإيمان البصير، وبين الانحدار الأخلاقي والارتقاء الروحي. ومن خلال أوامره وقصصه وخطابه العقلي، يضيء قانون المساءلة الأخلاقية، ويكشف في الوقت نفسه عن رحمةٍ تحفظ نظام الله في الخلق.

وتمثل "الجواهر" الآتية عشرَ دروسٍ خالدة مستخرجة من هذا الجزء، كلٌّ منها وجهٌ من وجوه الحكمة الإلهية، مقصودٌ به تهذيب القلوب وإصلاح المجتمعات. وهي جميعًا تنتظم في إطارٍ أخلاقي وروحي يقوم على الإعلان القرآني المركزي:
"وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ"

١) رفض التقليد الأعمى

يأمر الله المؤمنين أن يكونوا أصحاب فكر مستقل، يختارون الحق عن وعي وبصيرة، لا بتأثير العادة أو ضغط الأكثرية، بل على أساس العلم والدليل:

وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ (الأنعام: ١١٦)

فالإيمان الحق ينمو بالتفكر والإخلاص، لا بالتبعية العمياء. والإسلام يدعو إلى قناعة مُعلَّلة لا إلى تقليدٍ سلبي، وبذلك يربّي عقولًا تبحث عن الحقيقة، وقلوبًا تخضع لها حين تتبيّن.

٢) الإثم الخفي

يُؤمَر المؤمنون باجتناب الذنوب الظاهرة، وكذلك الذنوب الباطنة الكامنة في القلب:

وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَبَاطِنَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡسِبُونَ ٱلۡإِثۡمَ سَيُجۡزَوۡنَ بِمَا كَانُواْ يَقۡتَرِفُونَ (الأنعام: ١٢٠)

فالذنوب الظاهرة—كالكذب والسرقة—قد يُنكِرها الناس بسهولة، أما الخفية—كالكِبر والحسد وحب الظهور—فتفتك بالقلب في صمت. ولذلك قال النبي ﷺ:
عن عبدِ اللَّهِ بن مسعُودٍ، عن النبيِّ ﷺ قَالَ: **«لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ...» (رواه مسلم)**

فالإصلاح الحقيقي يبدأ من الداخل؛ لا يكفي أن تُنقّى الأفعال، بل لا بد أن تُطهَّر النيات وتُهذَّب السرائر.

٣) الذرية الجديدة

تفتح هذه الآية الفريدة أفقًا للتأمل في أصل الإنسان وتجدد الإنسانية:
وَرَبُّكَ ٱلۡغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۚ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفۡ مِنۢ بَعۡدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوۡمٍ ءَاخَرِينَ (الأنعام: ١٣٣)

وموضع التفرد في ختم الآية بقوله) :**كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوۡمٍ ءَاخَرِينَ**" **(**كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين". فلو حُذفت هذه العبارة لتم المعنى—كما في قوله تعالى:
إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ (فاطر: ١٦)

ومن ثم فإن الزيادة المقصودة "كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين" توحي ببُعد وجودي أعمق. فالفعل **أنشأكم** يدل على الإبراز والإنماء والتدرّج في التكوين، لا مجرد الإبدال اللحظي. وعبارة **من ذرية قوم آخرين** قد تفيد—إضافة إلى التعاقب التاريخي—إشارة إلى امتدادٍ خلقي سابق، أو سلالة بشرية/شبه بشرية سبقت مرحلة آدم وذريته، ثم جاء طورٌ جديد مميز بالعقل والوعي والمسؤولية الأخلاقية.

أما جمهور المفسرين كالطبري والقرطبي وابن كثير فيحملون الآية على معنى تعاقب الأمم في التاريخ، وأن الله يستبدل قومًا بقوم، كما جرى للأمم المكذِّبة كقوم نوح وعاد وثمود. وهذا تفسيرٌ راسخ يقرر قدرة الله وسنته في الاستخلاف. غير أن القراءة الموسَّعة تلتفت إلى دقة التعبير القرآني في **ذُرِّيَّةِ قَوۡمٍ آخَرِينَ** التي تُركّز على "الذرية" أكثر من مجرد "الاستبدال."

ومهما يكن من وجه الترجيح، فكل ذلك منسجم مع التوحيد: فالوجود بكل أطواره إنما يتشكل بإرادة الله وحكمته. وبذلك تظهر الإنسانية—في هذا الضوء—كمحصلة خلقٍ قصديٍّ متدرّج، صاغته رحمة الرحمن وتدبيره.

٤) الطعام المحرم

يقرر القرآن أن المحرّم من الطعام في آخر وحي الله للبشر قليلٌ ومحددٌ تحديدًا صريحًا، كما في قوله تعالى:

قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٖ يَطۡعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ (الأنعام: ١٤٥)

تُثبت هذه الآية أن التحريم لا يتجاوز هذه الأنواع الأربع، وتردّ ما استُحدث لاحقًا من قيود غذائية مصدرها العادات أو الابتداع البشري بعد اكتمال الوحي.

ويبين القرآن كذلك أن بعض الأمم السابقة، وبخاصة بني إسرائيل، فُرضت عليهم محرمات إضافية لا لأنها أصل التشريع، بل عقوبةً على بغيهم:
وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٖۖ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ وَٱلۡغَنَمِ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتۡ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلۡحَوَايَآ أَوۡ مَا ٱخۡتَلَطَ بِعَظۡمٖۚ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِبَغۡيِهِمۡۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ (الأنعام: ١٤٦)

ومن ثم فإن الإسلام أعاد أحكام الطعام إلى صفائها، لا لتكثير القيود، بل لتربية النفس على الانضباط والشكر والاعتدال، ولتحويل الاهتمام من "جمود الطقس" إلى "مراقبة الله" فيما يأكل الإنسان ويشرب. وتعيد آية المائدة تأكيد هذه الأقسام الأربع مع بيان أمثلة لما يدخل في "الميتة:"

حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيۡتُمۡ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ (المائدة: ٣)

فتُفهم "الميتة" بأنها كل حيوان مات قبل الذكاة الشرعية لأي سبب. ولا يقدم القرآن دليلًا على توسيع التحريم إلى أطعمة أخرى خارج هذه الأصول الأربع. وقد يُثار سؤالٌ حول أطعمة وردت رواياتٌ بأنها نُهي عنها؛ ومعالجة ذلك تحتاج مراجعةً زمنية دقيقة: هل كان النهي قبل نزول هذه الآيات أو بعدها؟ ويحتمل أن تكون بعض الأحكام الأولى—إن ثبتت—على سبيل موافقةٍ مؤقتة لتشريعٍ سابق، ثم جاء القرآن فحسم المعيار النهائي في هذه الأربعة، وما بعد ذلك إنما هو بيان لا توسيع.

وبناءً عليه، تُعدّ الأولوية الزمنية للوحي هنا مهمة: فبعد نزول (الأنعام: ١٤٥) استقر معيار "ما يُسمّى حرامًا" على هذا الحد.

٥) أوامر الصراط المستقيم الجامعة

من أشمل مقاطع هذا الجزء آيات الوصايا في (١٥١–١٥٢)؛ إذ تقدّم عشرة أصول تُشكّل الإطار الأخلاقي لحياة فاضلة ومجتمع عادل:
قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗاۖ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ إِمۡلَٰقٖۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡۖ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَۖ وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ (١٥١) وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۖ وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۖ وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰۖ وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ (الأنعام: ١٥١–١٥٢)

ويمكن تلخيصها في عشرة أوامر:

1. توحيد الله وترك الشرك.
2. الإحسان إلى الوالدين.
3. عدم قتل الأولاد من الفقر.
4. اجتناب الفواحش ظاهرها وباطنها.
5. حفظ النفس التي حرّم الله إلا بالحق.
6. حفظ مال اليتيم وتنميته بالتي هي أحسن.
7. إيفاء الكيل.
8. إيفاء الميزان بالقسط.
9. العدل في القول ولو على القريب.
10. الوفاء بعهد الله.

ثم يختم الله ذلك بإعلان أن هذه الوصايا هي "الصراط الواحد" الذي لا يتعدد:

وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (الأنعام: ١٥٣)

بهذه الآيات يرسم الله خريطة طريق لحياة متوازنة أخلاقيًا وروحيًا، قائمة على التوحيد والرحمة والاستقامة والعدل.

٦) الوحدة أمرٌ شرعي لا خيار

وحدة المسلمين ليست مجرد قيمة مستحسنة، بل تكليفٌ شرعي. أما التفرق فمدانٌ في القرآن مرارًا:

إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ (الأنعام: ١٥٩)

تؤكد الآية أن التمزق الديني يبعد صاحبه عن هدي النبي ﷺ وعن رضا الله. فالإسلام يجمع القلوب حول الإيمان والعدل والغاية المشتركة، بينما تُحطِّم العصبيات المذهبية والفكرية والثقافية نسيج الأمة. لذلك فالوحدة ليست "اختيارًا اجتماعيًا"، بل "أمانة شرعية" مؤسسة على الوحي.

٧) الإسلام استسلام كامل

علاقة العبد بربه تقوم على التسليم المطلق، وقد لخصت هذه الآيات معنى الإسلام في أبهى بيان:

قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ (الأنعام: ١٦٢–١٦٣)

فكل عمل يؤديه المؤمن—عبادةً كان أو خدمةً أو سعيًا أو عملاً—يكتسب معناه حين يتوجه لله وحده. الإيمان ليس أجزاء منفصلة، بل حياة كاملة ووفاة كاملة، وباطن ظاهر، كلها لله.

٨) اللباس مرآة تعظيم بيوت الله

من تعظيم شعائر الله أن يقف الإنسان بين يديه بهيئة تليق بمقام العبادة. ولذلك يخاطب القرآن بني آدم جميعًا:

يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ (الأعراف: ٣١)

الأمر بـ **"خذوا زينتكم "**يتجاوز حدّ الستر إلى معنى أوسع: الكرامة، والنظافة، وحسن الهيئة؛ فهي صورةٌ ظاهرة لاحترامٍ باطن لله. ولا يليق بالمسلم أن يدخل بيت الله بلباسٍ يستحي أن يلقى به الناس في غير المسجد.

وقد رُوي عن بعض السلف ما يدل على هذا الأدب الروحي؛ فقد يُختار للقيام بين يدي الله ما يليق بالمقام، وخاصة في صلاة الليل، تعظيمًا لحق الوقوف بين يدي الخالق.

٩) الخلق والأمر: نمطان من الفعل الإلهي

تُدار ظواهر الوجود بنمطين من فعل الله :**الخَلْق** و**الأمْر** .فهناك ما يُوجَد بالخلق، وهناك ما يعمل ويستمر ويُسخَّر بنظامٍ قائم على الأمر الإلهي:

إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (الأعراف: ٥٤)

فالله لا يبتدئ الخلق فحسب، بل يُديمه وينظمه ويضبطه بأمره، وفق تقديرٍ محكم.

طبيعة القرآن

شهد عصر الدولة العباسية (833–851م) جدلًا شديدًا حول: هل القرآن "مخلوق" أم "غير مخلوق"، وتعرّض الإمام أحمد بن حنبل للأذى والسجن بسبب رفضه القول بخلق القرآن. ويقرر النص القرآني أن الوحي **روحٌ من أمر الله**، لا من جنس الخلق المادي:

وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ (الشورى: ٥٢)

وكذلك لما سُئل النبي ﷺ عن الروح جاء الجواب:

وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا (الإسراء: ٨٥)

وقد يُقال إن الآية تتحدث عن الروح الإنسانية، لكن ضمّها إلى سياق الآيات (86–89) يظهر ارتباطًا قويًا بالوحي ذاته، وبحفظ القرآن وسموه عن التبديل وعن القدرة البشرية على الإتيان بمثله:

وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا (٨٦) إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا (٨٧) قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (٨٨) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (الإسراء: ٨٦–٨٩)

وبهذا يكون القرآن هدايةً من أمر الله، نورًا يُحيي، يتجاوز حدود الزمن، ويشكّل مسار الإنسان—لأنه كلمة الله التي تهدي الخلق المخلوق.

١٠) النصيحة مسؤولية مركزية لكل المصلحين

النصيحة (نصيحة/نُصْح) هي شريان الإيمان. وكل نبيٍّ حمل رسالته في قالب نصحٍ رحيم.

قال نوح لقومه:
أُبَلِّغُكُمْ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (الأعراف: ٦٢)

وقال هود:
أُبَلِّغُكُمْ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ (الأعراف: ٦٨)

وقال صالح:
فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَـٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّـٰصِحِينَ (الأعراف: ٧٩)

تُظهر هذه الآيات أن النصيحة ليست ترفًا أخلاقيًا، بل جوهر الرسالة النبوية وواجبٌ على كل من يريد إصلاح المجتمع ورفع مستواه.
ولفظ **النصيحة** في العربية أعمق من كلمة"Advice" ؛ فهي في أصلها تدل على:

- تنقية الشيء من الشوائب والعيوب،
- ووصل ما انقطع ورتق ما تمزق.

وبناءً على ذلك عرّفها العلماء بأنها: كل قولٍ أو فعلٍ يُقصَد به الخير والإرشاد والتحسين للمنصوح له، بدافع المحبة والشفقة لا بدافع التعالي واللوم. فالناصح الحقيقي يحب للناس ما يحب لنفسه.
ولذلك جعلها النبي ﷺ من صميم الدين. قال جرير بن عبد الله رضي الله عنه:

«بَايَعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى إِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالنُّصْحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ» (البخاري ومسلم)

النصيحة الصادقة تقوي الثقة بين المؤمنين وتحفظ العافية الأخلاقية للجماعة، وتحمي الأفراد من الزلل والمجتمعات من الفساد.

وحتى تكون النصيحة مؤثرة، ينبغي أن تصل إلى القلب بالرحمة لا بالمواجهة. وقد لخّص ابن حزم هذا الأدب بقوله:
"إذا نصحتَ فانصح سرًّا لا علنًا، وبالتعريض لا بالتصريح، إلا أن لا يفهم المنصوح التعريض، فلا بد حينئذٍ من التصريح. فإذا جاوزتَ ذلك فقد ظلمته وخرجتَ عن حدّ النصيحة".

فالتشهير العلني غالبًا ثمرة كِبر، أما الإرشاد الخاص فباب رحمة. وبالنصيحة تُشفَى القلوب، وتعود الثقة، وتُصلَح المجتمعات.

خاتمة
يتجلى الجزء الثامن كأنه "دليل إلهي" لإيقاظ الضمير واستعادة النظام. يدعو إلى صفاء التفكير، ونقاء القلب، والثبات على الصراط المستقيم. فمن ترك التقليد الأعمى، وطهّر باطنه، وضبط حياته بوصايا الله، وجاهد في الإصلاح بالنصيحة الرحيمة—اقترب من الانسجام مع الحق الإلهي.

الصراط المستقيم ليس طريق الاعتقاد فقط، بل طريق الحياة: وحدةٌ وإخلاصٌ واتزانٌ ورحمة. ومن سار عليه سار في نور الأمر الإلهي إلى رحمة رب العالمين.

جواهر من الجزء التاسع: الإيمان، والخلق، وطريق القرب الإلهي

(الأعراف ٧: ٨٨ – الأنفال ٨: ٤٠)

مقدمة

يقدّم الجزء التاسع من القرآن دروسًا خالدة في الإيمان والخلق والهداية الربانية. ويستعرض قصص الأنبياء والأمم، كاشفًا الصراع الممتد بين الإيمان والكبر، وبين التواضع والتمرد.

ومن خلال هذه الآيات يقرر الله قواعد تُشكّل علاقة المؤمن بربه: الإيمان مصدر البركات، والتواضع مفتاح الفهم، والتقوى نورٌ يوجّه الاختيارات الأخلاقية والروحية. ويدعو هذا الجزء كل قلبٍ إلى الرجوع لعهد الإيمان، وتطهير النفس، والسير في طريق الحق بالشكر والثبات.

١) مفتاحا الخيرات العظيمة

يبيّن الله أن ازدهار أي مجتمعٍ إنما تُؤسِّسه حقيقةٌ واحدة: الإيمان والتقوى. فإذا آمنت القلوب واستقامت الأعمال انفتحت أبواب البركات، وإذا كذّبت النفوس وهي في سعةٍ ونعمة كان الهلاك نتيجةً حتمية.

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ (الأعراف: ٩٦)

تقرر هذه الآية قانونًا عامًا :**الإيمان والتقوى يفتحان أبواب الرخاء الرباني، والكفر والفساد يستدعِيان الانهيار والخراب.**

٢) الدلالة الروحية لرقم الأربعين

للعدد أربعين وزنٌ رمزي وروحيّ واضح في القرآن والسنة، وقد ارتبط بأحداث مفصلية في الوحي وتدرّج الإنسان:

- **ميقات موسى أربعين ليلة** حيث تلقّى الأوامر الإلهية:

وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً... (الأعراف: ١٤٢)

- **تحريم دخول الأرض المقدسة على العصاة من بني إسرائيل أربعين سنة:**

قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (المائدة: ٢٦)

- **بعثة النبي محمد ﷺ بدأت وهو ابن أربعين سنة**، إيذانًا ببدء الرسالة الخاتمة.
- **وفي سن الأربعين يُتوقع بلوغ كمال النضج والحكمة والوعي الروحي**، وهو سن اكتمال المسؤولية وشكر الوالدين، وقد عبّر القرآن عن ذلك بدعاءٍ بديع:

وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ

أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓۖ إِنِّي تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَإِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ (الأحقاف: ١٥)

ونُقل عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله: أنه من بلغ الأربعين ولم يبلغ خيره شره فليتجهز إلى النار

ومعناه: من بلغ الأربعين ولم يغلب خيرُه شرَّه فقد دخل مرحلةً خطرة تستدعي محاسبةً صارمة. إنها دعوة إلى أن يكون النضجُ نموًّا أخلاقيًا وروحيًا، لا غفلةً وانحدارًا.

٣) تشجيع الفضول المعرفي

تصوّر هذه الآية موقفًا مهيبًا يجمع بين جلال الله وخشوع موسى عليه السلام. فقد سأل موسى ربَّه أن يراه، شوقًا وقربًا، لا اعتراضًا ولا جرأة. فكرّمه الله ببيانٍ عمليّ يوضح أن المخلوق في هذه الدنيا لا يطيق التجلّي المباشر للذات الإلهية. وهذا لا يعني استحالة الرؤية مطلقًا، وإنما يدل على **عجز الطبيعة البشرية الدنيوية** عن تحملها.

وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۖ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۖ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ (الأعراف: ١٤٣)

تلهم الآية المؤمن أن يطلب العلم والحق **بتواضع** :فالسؤال الشريف مكرمة، لكن حدود الإدراك البشري أمام الجلال الإلهي حقيقةٌ لا تُغفل. إنها فضولٌ معرفيٌّ مؤسَّس على الهيبة، لا على التعالي.

٤) خطر الكِبر

مع وضوح آيات الله في الكون والوحي، قد يحجب الكِبرُ القلب عن الحق. فالاستكبار ليس خطأً ذهنيًا فحسب، بل داءٌ روحيٌّ يُطفئ قابلية القلب للهدى مهما كانت البراهين صارخة.

سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ... (الأعراف: ١٤٦)

فيصير الكبر **حجابًا وعقوبةً** :عمًى يصنعه الإنسان بيده، ثم يُترك لنتيجته. ولهذا لا يستقر الهدى إلا في قلبٍ متواضع.

٥) رسول الرحمة واليسر

من أبرز سمات الرسالة الخاتمة التي جاء بها النبي ﷺ: الرحمة، والاعتدال، واليسر. لم يبعث الله الإسلام ليُرهق البشرية، بل ليرفعها ويحررها من الأغلال والتشدد والانحراف. فجاء النبي ﷺ بدينٍ يعيد الناس إلى الفطرة، ويزيل عنهم التكاليف التي صارت قيودًا بسبب الانحراف والتبديل.

وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ.. (الأعراف: ١٥٦–١٥٧)

وعليه فالإسلام دين رحمةٍ وتوازن، وأي محاولة لتحويله إلى مشقةٍ غير مبررة تُناقض روح الرسالة.

٦) احرص أن تكون لك حُجّة

في قصة أصحاب السبت عبرةٌ خالدة في المسؤولية الأخلاقية والشهادة للحق. لما وقع بعضهم في المعصية انقسم الصالحون إلى فريقين:

- فريقٌ واصل النصح والتحذير.
- وفريقٌ رأى النصح غير ذي جدوى وتساؤل: ما فائدة الإصرار؟

وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (الأعراف: ١٦٤)

وفي هذا درسان:

1. وظيفة المؤمن البلاغ والنصح، لا ضمان الاستجابة؛ فالهدى بيد الله.
2. الإنكار على المنكر يرفع عن صاحبه تهمة التقصير ويقيم عليه حجة الشهادة.

ثم جاء البيان الإلهي بأن النجاة كانت لمن قام بالواجب:
فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ. (الأعراف: ١٦٥)

إذن على المؤمن أن يضمن لنفسه "معذرةً إلى ربه": موقفًا واضحًا للحق، ونصحًا بإخلاص، وأداءً للأمانة ولو أعرض الناس.

٧) العهد الأعظم

يملك الإنسان معرفةً فطريةً بخالقه (الفطرة)، وقد أُكّدت هذه الحقيقة في العهد الأول الذي أخذه الله على ذرية آدم:

وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ (الأعراف: ١٧٢–١٧٣)

ورغم أن كيفية هذا الإشهاد من الغيب الذي لا تُحيط به العقول، إلا أن معناه عظيم: كل نفس خُلقت على وعيٍ بالغاية ومسؤوليةٍ أمام الله. وليس في ميلاد الإنسان أو نسبه أو ظروفه مصادفة؛ بل كل ذلك يجري بتقديرٍ حكيم لخدمة دورٍ فريد في خطة الله. فالقدرات والابتلاءات والفرص كلها أجزاء من تدبيرٍ يقود العبد إلى معرفة ربه وشكره وعبادته.

٨) ادعه بأسمائه الحسنى

ذات الله فوق إدراك البشر، لكن القرآن فتح لنا أبواب المعرفة والقرب عبر "الأسماء الحسنى"، فهي مرايا الكمال الإلهي، وبها يذكر العبد ربه ويقترب منه.

وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ. (الأعراف: ١٨٠)

الدعاء بالأسماء الحسنى عبادةٌ محبة، ويقظةٌ قلبية، وحوارٌ روحي مع الله. ومعرفة الأسماء تُعرّف العبد بصفات الرحمة والعدل والحكمة والقدرة، فتنعكس هذه المعاني على أخلاقه وسلوكه؛ فالعبد يتربّى بذكر ربه.

٩) الوصف الجامع لمكارم الأخلاق

من أعمق آيات هذا الجزء في جمع أصول السلوك الراقي قوله تعالى، وقد نُقل عن الإمام جعفر الصادق أنه قال": "ليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية".

خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ (الأعراف: ١٩٩)

وتلخص الآية مكارم الأخلاق في ثلاثة أصول:

1. **خذ العفو:**
   أي تجاوز عن زلات الناس، وكن صاحب سعة صدر. وقد قال النبي ﷺ:
   "ما زاد عبدٌ بالعفو إلا عزًّا." (مسلم)
   والعفو لا يُلغي العدل، لكنه يرفع صاحبه عن الانتقام الشخصي، ويجعل غايته الإصلاح لا التشفي.
2. **وأمر بالعرف:**
   و"العرف" هو الخير الذي تشهد له الفطرة السليمة: الصدق والعدل والرحمة والنزاهة. فهو أمرٌ بكل ما يُصلح المجتمع ويجمعه ولا يفتته.

3. **وأعرض عن الجاهلين**:
أي لا تُبدّد طاقتك في جدالٍ عقيم ولا تستنزف نفسك في الاستفزازات. الإعراض هنا حكمةٌ واتزان، لا ضعف. وهو أيضًا تذكيرٌ بألا ينحدر الإنسان فيصبح جاهلًا مثلهم.
هذه الثلاثية تُنشئ أخلاقًا متوازنة: رحمة، ومسؤولية اجتماعية، وكرامة نفس.

١٠) ثمرات التقوى

يقف الإنسان أمام قرارات يومية في العمل والعلاقات ومفترقات الحياة. والتقوى تمنح المؤمن "نورًا" يميّز به الحق من الباطل، ويثبت به عند الفتن والالتباس. إنها البوصلة الداخلية التي تضبط الضمير.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ (الأنفال: ٢٩)

فالتقوى تمنح القلب **فرقانًا** :قدرةً على التمييز وسط التضليل والخلط، وتجلب المغفرة والحماية. وبذلك تكون التقوى **درعًا وبصيرة** :درعًا يقي من الذنب، وبصيرةً تُنير طريق الصواب.

خاتمة

يذكّر الجزء التاسع الإنسان بأصله وغايته وعهده مع الله. فالإيمان ليس ميراثًا جامدًا، بل تجديدٌ يومي بالذكر والتواضع ومكارم الأخلاق.
وتعلّمنا آياته أن الهداية تفيض من التقوى، والقوة تولد من الصبر، والعزة تنبت من العفو. وتبيّن قصص الأنبياء أن النجاح لا يُقاس بالسطوة، بل بالإخلاص والطاعة للحق الإلهي.
ومن جمع الإيمان بتواضع، والخلق برحمة، فقد وفّى بالعهد المطبوع على كل نفس" :**ألست بربكم؟** "
وسار في طريق القرب إلى الله وسكينة حضرته.

جواهر من الجزء العاشر: دروس في النظام الإلهي، والإيمان، والتجدد

مقدمة

يقدّم الجزء العاشر من القرآن الكريم هدايةً نزلت في بعضٍ من أدقّ المراحل في حياة الجماعة المسلمة الأولى. فقد جاءت هذه الآيات في سياق ابتلاءات القتال، والاختبارات الأخلاقية، وتكوين مجتمعٍ جديد. غير أن حكمتها تتجاوز حدود التاريخ، لتمنح دروسًا خالدة في مبادئ الوحدة، والعدل، والشجاعة، والتوكّل على الله.

وتجمع "جواهر الجزء العاشر" هذه المعاني لتُظهر كيف تُهذّب الحكمة الإلهية سلوك الإنسان، وتطهّر النية، وتُقوّي الإيمان في أوقات المحن. فكل "جوهرة" تعكس حقيقةً مضيئة، تدعو المؤمنين إلى العيش بشجاعةٍ وإخلاصٍ وثقةٍ في الذي بيده تدبير الأمور كلّها. وبمجموعها، تشكّل هذه الجواهر العشر خريطةً روحيةً لكل مؤمنٍ يسير في تحديات الإيمان في عالمٍ مضطرب.

1) المتطلبات الستة لنيل نصرة الله في القتال

إن مواجهة العدوّ المعتدي لا تُنال فيها النصرة إلا بتأييد الله، غير أن هذا التأييد مشروطٌ بأسسٍ روحيةٍ وأخلاقيةٍ محددة. وقد بيّن القرآن ستة شروطٍ للنصر الإلهي:

1. الثبات
2. كثرة ذكر الله
3. طاعة الله ورسوله
4. الوحدة
5. الصبر
6. التواضع

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ (٤٥) وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ (٤٦) وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرٗا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ (الانفال ٤٥ - ٤٧)

المعنى :تذكّر هذه الآيات المؤمنين أن الانضباط الداخلي، ووحدة الهدف، وكثرة ذكر الله—أسلحةٌ أعظم أثرًا من أي قوةٍ مادية.

2) لا يتغيّر شيء ما لم تتغيّر أنت

سنّة التغيير عند الله واضحةٌ ثابتة: فالله لا ينزع نعمةً من قومٍ إلا إذا أفسدوا ما في أنفسهم، كما أن رفع الشدائد مرتبطٌ بالإصلاح الداخلي. ولهذا فمعونة الله مشروطةٌ بالاستقامة الأخلاقية والصفاء الروحي. وعند حلول الأزمات، يُدعى المؤمن إلى محاسبة النفس قبل اتهام الآخرين.

ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ (الانفال: ٥٣)

تقرر الآية قانونًا خالدًا في "السببية الأخلاقية :"**مصير الأمم يبدأ من داخل النفوس.**

ويُتداول قولٌ شائع يُنسب خطأً لأينشتاين: "الجنون هو أن تفعل الشيء نفسه مرارًا وتتوقع نتائج مختلفة." غير أن الإسلام يُهذّب هذا المعنى: فهناك تكرار أعمى يورث الجمود، وتكرار منضبط يورث الإتقان. والتغيير لا يبدأ بترك السعي، بل يبدأ بتطهير النية وتصحيح العيوب الداخلية.

3) السلام بالقوة والتوكل على الله

الإسلام دين سلام، لكن السلام لا يُحفظ بلا قوة. لذلك يأمر القرآن بالاستعداد والردع، لا بغرض العدوان، بل لمنعه. وهذا المبدأ—"السلام عبر القوة"—أُعلن منذ أكثر من أربعة عشر قرنًا، وشهد التاريخ أن التفريط فيه يورث الضعف والمهانة.

وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ (الانفال: ٦٠)

لكن القوة لا تنفصل عن الرحمة. فإذا مال العدو للسلم، فاستجابة المؤمن هي قبول السلام والتوكل على الله، حتى لو بدا الرفض—بدافع الحذر—أكثر "حسابًا" بشريًا. فهذه علامة الإيمان :**الطاعة فوق الحسابات، والتوكل فوق الخوف.**

وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ (٦١) وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ (الانفال ٦١ - ٦٢)

وتُجسّد هذه الآيات توازن الإسلام الأخلاقي :**استعداد بلا عدوان، وسِلم بلا سذاجة .**والنصر الحقيقي ليس في الهيمنة، بل في طاعة الله والتوكل الثابت عليه.

4) مقياس الإيمان

يعرض الله مبدأً فريدًا يربط قوة الإيمان بحجم التأييد الإلهي. فكلما اشتد إيمان المؤمنين وصبرهم وتوكلهم، قلّت حاجتهم إلى القوة المادية. فإذا بلغ الإيمان ذروته منحهم الله ميزة "عشرة أضعاف"، وإذا كان الإيمان أضعف—مع الصدق—خفّف الله فصار النصر "ضعفين".

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ (٦٥) ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ.. (الانفال ٦٥ , ٦٦)

تؤسس هذه الآيات "مقياسًا إلهيًا" يوضح أن قوة اليقين الروحي هي التي تحدد مدى النصر الإلهي.

وقد تجلّى ذلك في بدر: إذ كان المسلمون نحو 315 رجلًا ومعهم فرسان، في مواجهة جيش قريش يقارب 1300 ومعهم 200 فارس. وكانت قريش مستعدةً للحرب، بينما خرج المسلمون أصلًا لاعتراض قافلة تجارة صغيرة قليلة الحراسة—مموّلة بأموالٍ سُلبت منهم بعد إخراجهم من مكة.

ومع ذلك منح الله النصر للمؤمنين، لا بكثرة العدد ولا بالعدة، بل بالإيمان والصبر والإخلاص، ليُثبت أن القوة الحقيقية تنبع من القلب حين يوافق المقصد الإلهي.

5) السبب الحقيقي لمشكلات العالم

كثيرًا ما يعزو المسلمون ضعفهم أو أزماتهم إلى مؤامرات خارجية، لكن القرآن يقرر أن السبب الأعمق ليس "اتحاد الكافرين ضد المسلمين"، بل **تفرّق المسلمين فيما بينهم** .فالانقسام الداخلي، والتنافس، وتضييع الأخوّة، يفتح باب الهزيمة قبل بدء المعركة.

ومن غزو المغول إلى سقوط الأندلس، ومن تراجع الدولة العثمانية إلى مأساة فلسطين المستمرة، يتكرر النمط ذاته :**التفرق يولّد السقوط، والعدو إنما يستثمر الشقوق التي نصنعها نحن.**

وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ (الانفال ٧٣)

إذن يبدأ العلاج لا بمواجهة الخارج وحده، بل بإصلاح الداخل واستعادة الوحدة. وما لم تُستبدل الفرقة بالأخوة، والمصلحة الشخصية بالمقصد الجماعي، فستظل دائرة الضعف والاستغلال تتكرر.

6) قرّر من تحب حقًا

يلفت الله النظر إلى ثمانية أنواع قوية من التعلّق: الأسرة والقرابة والمال والتجارة والمساكن... وقد تصبح حواجز أمام الإيمان إذا غلبت محبة الله ورسوله والجهاد في سبيله. وهذه المحابّ طبيعية، لكن لا يجوز أن تتقدم على محبة الله ورسوله ودينِه.

قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ (التوبة ٢٤)

هذه التعلّقات امتحانٌ للقلب. فالإسلام لا يذم حب الأهل ولا طلب النجاح، لكنه يضع **ميزانًا وتراتبية** . فإذا تزاحمت محبة الدنيا مع نداء الإيمان كشفت ضعفًا في الروح. والآية إنذارٌ وتذكير بإعادة ترتيب الأولويات ليبقى حب الله ورسوله أعلى من كل محبةٍ دنيوية.

7) معيار التوحيد الخالص هو حرية الفكر

تقرر الآية التالية أصلًا عميقًا من أصول التوحيد: أن الطاعة العمياء لأي سلطة بشرية إذا قدّمت على طاعة الله صارت لونًا من العبادة، وبالتالي صورةً من الشرك.

ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ (التوبة ٣١)

ولما سمع عدي بن حاتم—وكان نصرانيًا—الآية قال: "إنهم لم يعبدوهم". فقال النبي ﷺ: "بلى... حرّموا عليهم الحلال وأحلّوا لهم الحرام فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم."

يكشف هذا الحوار أن التوحيد ليس مجرد الإقرار بوحدانية الله، بل هو أيضًا **استقلالٌ فكري وأخلاقي** . فقبول الأحكام والمعايير دون برهان، لمجرد التقليد أو تعظيم الأشخاص، يناقض جوهر التوحيد.

وقال ابن حزم رحمه الله:

إن التقليد حرام، ولا يحل لأحد أن يأخذ قول أحد غير رسول الله صلى الله عليه وسلم بلا برهان

وعليه فالإسلام لا يدعو إلى خضوعٍ أعمى للعلماء أو القادة، بل يدعو إلى إيمانٍ مُعلَّل بالبيّنة، تحكمه نصوص الوحي وضميرٌ يستحضر سلطان الله الأعلى.

8) إبطال النسيء: إعادة الزمن إلى التقويم الإلهي

إن إدانة القرآن لـ"النَّسِيء" في الآيات التالية تمثّل إصلاحًا عميقًا يحرّر الزمن من عبث البشر، ويعيده إلى نظامٍ رباني منضبط أخلاقيًا.

إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡۚ وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ (٣٦) إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ.. (التوبة: ٣٦–٣٧)

التقويم العربي قبل الإسلام

ذكر المفسرون أن النسيء كان تأخير الأشهر الحرم لتسويغ القتال. لكن الشواهد اللغوية والتاريخية تشير أيضًا إلى أنه كان نوعًا من "الكبس" بإضافة شهرٍ إضافي لمواءمة السنة القمرية مع الشمسية، شبيهًا بالتقويم اليهودي القمري-الشمسي.

وقد استُعمل هذا النظام لمواءمة التجارة والحج مع المواسم المناسبة. وكان القائم عليه رجلًا من بني كنانة يُعرف بـ"القلمس"، يضيف شهرًا في بعض السنين ليبقى الحج في موسمٍ ألطف (كخريفٍ بارد)، خدمةً لمصالح اقتصادية وسياسية.

ومع الزمن تحوّل الأمر إلى فساد: صار من يملك قرار "التعديل" يحدد مواسم الحج والتجارة والحرب. فكان ما بدأ كضبطٍ عملي يتحول إلى تلاعب بالشريعة وانتهاك لقدسية الزمن.

إعادة قدسية الزمن

أبطل الإسلام النسيء وأعاد الزمن إلى إيقاعه الرباني، وكان ذلك حاسمًا في حجة الوداع حين قال النبي ﷺ:

إِنَّ الزَّمَانَ قَدِ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، السَّنَةُ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا (البخاري)

وبذلك تقررت السنة القمرية الخالصة (اثنا عشر شهرًا) إطارًا للعبادات والتاريخ الإسلامي. وثُبّتت الأشهر الحرم الأربعة :**ذو القعدة، ذو الحجة، المحرم، رجب**.

ومن النتائج العقدية لهذا الإبطال أن الزمن صار ميدانَ عبادةٍ وخضوع (تقوى). فالتقويم القمري المنفصل عن الدورة الشمسية يجعل رمضان والحج يدوران عبر الفصول كلها، فيُربّي المؤمن على أن الإيمان لا يُعلّق على الراحة المناخية أو "الملاءمة الدنيوية"، بل على الثبات في الامتثال للنظام الرباني العام.

9) «الله معك»... سكينة لكل خائف

تسرد الآية واحدةً من أوجع اللحظات في السيرة: اختباء النبي ﷺ وصاحبه أبي بكر في غار ثور أثناء الهجرة. وتجمع الآية معاني الإيمان، والعون الإلهي، والطمأنينة في وجه الخوف.

إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (التوبة ٤٠)

تعلّم الآية أن المؤمن إذا انسدت الأسباب، وجد عزاءه في الحقيقة الخالدة: «إن الله معنا».

لكن هذا الاعتماد ليس استسلامًا سلبيًا؛ فقد أخذ النبي ﷺ بالأسباب: خطط للطريق، وهيّأ الزاد، واختار الصحبة الموثوقة، ثم كان سكون قلبه قائمًا على التوكل.

وتذكّرنا الآية أن نصرة الله تتجاوز ما تراه العيون؛ فهو يسخّر جنودًا غيبية. وتذكر الروايات ما كان من نسج العنكبوت ووقوف الحمامة عند فم الغار... لكن المعجزة الأعظم لم تكن في العلامات الظاهرة، بل في نزول السكينة التي أطفأت الخوف.

إنها دعوة لكل مؤمن أن يحمل هذا المعنى: حين يرسخ الإيمان، يتحول الخوف إلى طمأنينة، والضعف إلى قوة. حيثما يسكن التوكل الحقيقي، فالله قريب.

10) الأصناف الثمانية للصدقات والزكاة

الصدقة في الإسلام من أشرف دلائل الإيمان، لأنها ترجمة عملية للثقة بالله الرازق. واللفظ العربي "صدقة" مشتق من "الصدق"، أي أنها برهان صدق العبد في توكله وإيمانه بوعد الله.

وغاية الصدقة—وخاصة الزكاة الواجبة—ليست إنقاص المال، بل **تطهيره** ورفعُ نفس المعطي:

خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا (التوبة: ١٠٣)

وقد حدّد الله بدقة ثمانية أصناف لمستحقي الصدقات والزكاة. والزكاة فريضة واجبة، أما الصدقة فبابها أوسع تطوعًا.

إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ (التوبة ٦٠)

الأصناف الثمانية:

- **الفقراء** :من لا يجدون ما يكفي حاجاتهم الأساسية.
- **المساكين** :من عندهم شيء لكنه لا يسدّ حاجتهم أو يعيشون ضيقًا ظاهرًا.
- **العاملون عليها** :القائمون على جمع الزكاة وتدبيرها وتوزيعها.
- **المؤلفة قلوبهم** :من يُرجى بتأليفهم تثبيتُ خيرٍ للإسلام أو دفعُ شر، ويشمل ذلك الداخلين حديثًا في الإسلام، وقد يمتد في سياقات معاصرة إلى شخصياتٍ نافذة تُسهم مواقفها في حماية مصالح المسلمين أو تحسين الفهم عن الإسلام.
- **في الرقاب** :فكّ الرقاب، ويشمل تحرير المأسورين، والمظلومين في السجون بغير حق، وكل ما يعيد للإنسان حريته وكرامته.
- **الغارمون** :أصحاب الديون العاجزون عن السداد بسبب حاجاتٍ مشروعة أو أزماتٍ قاهرة.
- **في سبيل الله** :باب واسع لكل ما يُقيم الدين ويحميه وينشره، وقد يشمل دعم المساجد والمدارس والتعليم الشرعي وخدمات المجتمع والمشروعات الإعلامية وغيرها مما يخدم الإيمان ويحفظه.
- **ابن السبيل** :المسافر المنقطع الذي نفدت نفقته، وإن كان غنيًا في بلده.

خلاصة

يكشف الجزء العاشر أن القوة الباقية تُولد من الإيمان والوحدة والتوكل على الله. وجواهره تُحوِّل الابتلاءات إلى مسارات تجددٍ روحي، وتعلّم أن:

- النصر الحقيقي يبدأ بإصلاح الداخل قبل مواجهة الخارج.
- السلام يُصان بالقوة المقترنة بالتوكل.
- الزمن يصبح مقدسًا حين يُضبط بالنظام الإلهي.
- المال يُطهَّر بالعطاء.

وتجسّد قصة الغار جوهر الرسالة: عندما تتلاشى الوسائل، يجد المؤمن سكينته في اليقين: «إن الله معنا».

ومن خلال هذه الدروس يتعلم القلب أن النجاح والطمأنينة لا ينبعان من الظروف، بل من الثبات والإخلاص والصبر تحت هداية الله.

جواهر من الجزء الحادي عشر: تأملات في الحكمة الإلهية والهداية وطريق الاستقامة

(التوبة 9:93 – هود 11:5)

مقدمة

تكشف آيات الجزء الحادي عشر من القرآن الكريم عن جواهر خالدة من الحكمة الإلهية والهداية. فهي تتجدد معانيها كلما تليت وتدبرت، فتُبرز سبيل العبودية الصادقة التي تُنمّي الإيمان والإخلاص وحسن العمل. وبين تصوير جمال الدنيا الزائل، وشرف العيش في كنف حماية الله، والرحمة المضمَّنة في الرسالة والنبوة، تُنير هذه الآيات طريق السالك إلى الكمال الروحي، وتُلهم مجتمعًا يقوم على الرحمة والوعي الأخلاقي. وكل لفتةٍ ربانية فيها تدعو المؤمن أن يحيا بالإيمان، ويعمل بالخير، وينظر إلى الحياة بعين القصد والفهم.

1) القيمة العظيمة للصدقة

تؤكد الآيات الآتية أهمية الصدقة بأبلغ بيان. فقد كان النبي ﷺ في حياته يجمع الصدقات بنفسه ويدعو للمتصدقين، سائلًا الله أن يطهّرهم ويبارك لهم ويُسكن قلوبهم. وبعد انتقال النبي ﷺ، تُذكّرنا هذه الآيات بأن الله سبحانه هو الذي "يأخذ" الصدقات ويقبلها قبل أن تصل إلى المحتاجين. ومن ثمّ تبقى الثوابات الروحية من تطهيرٍ وتزكيةٍ وسكينةٍ ومغفرةٍ مضمونةً بإذن الله.

خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٠٣) أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ (التوبة 103–104)

ومع هذا اليقين: كيف يتردد مؤمنٌ في الصدقة، والله هو الذي يتلقاها؟

2) عباد الله الصادقون

يعرّف القرآن "العبد الحق" بأنه من باع نفسه وماله لله—أعلى صور التسليم والوفاء—ابتغاء الجنة. قال تعالى:

إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ (التوبة 9:111)

وتتميّز هذه الآية بتقديم **النفس على المال** .بينما يأتي الترتيب في آياتٍ أخرى: المال ثم النفس، مثل:

لَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ ... (التوبة ٤٤)

ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ ... (الحجرات ١٥)

والترتيب المعتاد (المال قبل النفس) يوافق طبيعة البشر: فكثيرون يجدون صعوبةً أكبر في بذل المال من تعريض النفس للخطر. لكن في (9:111) يرفع الله قدر النفس بتقديمها، ليُبرز أن أعلى مراتب الوفاء أن يقدّم العبد روحه لله تعالى. وهنا تُكشف نزعة الإنسان إلى تعظيم المال، ويُرفع مقام التضحية والصدق في العهد مع الله.

والجنة سلعةٌ غالية، كما قال النبي ﷺ:
عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة))؛ رواه الترمذي وقال: حديث حسن.

فمن بذل نفسه وماله إنما يعلن صدق العبودية، ولا ينال الفوز الحقيقي إلا أهل هذا العقد العظيم.

3) الاستغفار لغير المسلم أم الدعاء له بالرحمة

يُطرح أحيانًا سؤالٌ حساس عند وفاة غير مسلم—قد يكون قريبًا أو صديقًا أو من أحسن إلى المسلمين—هل يُستغفر له؟ يجيب القرآن بوضوح :**الاستغفار بمعنى طلب المغفرة التي تقتضي دخول الجنة** لا يكون لمن مات على الشرك أو الكفر.

مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ (التوبة: 113)

المعنى" :ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى لكن هذا المنع يتعلق بالاستغفار الذي يفيد طلب إدخال الجنة. أما **الدعاء بالرحمة بمعنى أن يعاملهم الله بما شاء من لطفٍ وعدلٍ وحكمة** فبابه يُترك لعلم الله وتقديره، إذ الحكم النهائي إليه وحده:

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ (الحج: ١٧)

وهكذا يحفظ المؤمن التوازن: لا ينفي عدل الله، ولا يضيّق رحمة الله.

4) الصادقون: أثمن الصحبة

يأمر الله المؤمنين بملازمة الصادقين. والصادق ليس من يصدق بلسانه فقط، بل من يصدق في نِيّته وعمله وسلوكه. وصحبة هؤلاء تقوّي الاستقامة وتُعمّق الارتباط بالحق.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ (التوبة: ١١٩)

وتتجلى سمة الصدق في كل طبقات الوجود:

- **قدم صدق،**
- **لسان صدق،**
- **مبوّأ صدق،**
- **مدخل صدق ومخرج صدق...**

حتى يصير الصدق صفةً جامعة لحياة المؤمن كلها.

- **أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡ... (يونس ٢)**
وَلَقَدۡ بَوَّأۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدۡقٖ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ... (يونس: ٩٣)
وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ (الإسراء: ٨٠)
وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيّٗا (مريم: ٥٠)

فالصدق ليس قيمةً أخلاقية فحسب، بل هو أساس الإيمان وميزان الشرف.

5) الكون: نظامٌ مغلق قابل للإعادة

في هذا الجزء يكرر القرآن—تحديًا للمنكرين—العبارة **"يبدأ الخلق ثم يعيده"**، وقد وردت في مواضع أخرى كذلك. وهي تعكس حقيقةً عظيمة عن الكون: أنه نظامٌ محفوظٌ بقدرة الله، قابلٌ للإعادة بسننٍ ربانية محكمة؛ فلا شيء يضيع من أمر الله، ولا يترك الوجود للفوضى، بل كل شيء محفوظ وسيُعاد ويُسترد.

إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلۡقِسۡطِۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ (يونس: ٤)

قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ (يونس: ٣٤)

وبهذا المعنى يتأكد اليقين بالبعث وبالجزاء العادل.

6) دعاء أهل الجنة: التسبيح والحمد

من مشاهد الغيب التي يمنحنا القرآن لمحةً عنها وصفُ أهل الجنة في دار الخلود، حتى كلماتهم مشبعة بالنعيم والشكر:

دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (يونس: ١٠)

المعنى :يبدأ نداء أهل الجنة بـ **"سبحانك اللهم "**ويُختم بـ **"الحمد لله"**، في إشارةٍ إلى الانسجام الأبدي بين التسبيح والحمد—ركني الذكر الأعظمين.

- **التسبيح** إعلان تنزيه الله عن كل نقص.
- **الحمد** اعتراف بكماله وشكرٌ على إحسانه.

وباجتماعهما يكتمل معنى التوحيد:

- الله منزّهٌ كاملٌ في ذاته (تسبيح)،
- والله كاملٌ في فعله وتدبيره (حمد).

ولهذا يعيش أهل الجنة في ذكرٍ دائم، تترجم سعادتهم إلى تسبيحٍ وحمدٍ لا ينقطع.

7) زوال الدنيا وسرعة انقضائها

يذكّر الله الناس بفناء الدنيا وسرعة ذهابها. ويضرب لذلك مثل المطر والنبات: يحيي المطر الأرض فتزدهر وتزدان، ثم لا تلبث أن تذبل وتصبح حصيدًا. وكذلك الدنيا تُبهِر لحظة ثم تزول، ويأتي يوم الرجوع إلى الله للحساب.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ (٢٣) إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلۡأَنۡعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ (يونس ٢٣ ، ٢٤)

إنه مثلٌ يهزّ القلب: بهجة الحياة لا تدوم، وجمالها لم يُخلق ليخدع، بل ليوقظ. والحياة الباقية تبدأ حين تنتهي هذه العاجلة، ويقف كل عبد بين يدي ربه.

8) الولاية: أكرم مقامٍ يناله المؤمن

أعظم علاقةٍ يظفر بها المؤمن أن يكون الله وليَّه، وأن يكون العبد من أوليائه. فمن بلغ هذا المقام عاش بلا خوفٍ ولا حزن، كما وعد الله. وهذا الشرف يقوم على ركنين :**الإيمان والتقوى**.

أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ (٦٢) ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ. (يونس ٦٢ -٦٤)

ويؤكد الحديث القدسي—في صحيح البخاري—مكانة هذا الوليّ وعناية الله به:
عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله قال **"من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها وإن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته " (صحيح البخاري)**

فالولاية ليست لقبًا، بل حقيقةٌ روحية: إيمانٌ ثابت، وتقوى حيّة، وطاعةٌ مستقيمة، تُبنى بالفرائض ثم تُنمّى بالنوافل.

9) أدعية الأنبياء المختلفة

سجّل القرآن دعاء نبيين كريمين: موسى عليه السلام ونوح عليه السلام، حين دعا كلٌ منهما على قومه بعد طول إعراضٍ واضطهادٍ للمؤمنين.

دعاء موسى عليه السلام كان طلبًا لطمس أموال فرعون وملئه وتشديد قلوبهم، بحيث لا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم:

وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيۡتَ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةٗ وَأَمۡوَٰلٗا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَۖ رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ (يونس: ٨٨)

أما نوحٌ عليه السلام فكان دعاؤه بعد أن أُوحي إليه أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن، فدعا بزوال الكفر من الأرض:

وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرۡهُمۡ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرٗا كَفَّارٗا. (نوح ٢٦–٢٧)

وفي المقابل، فإن النبي محمدًا ﷺ—مع ما لقي من أذى—لم يدعُ على قومه، بل قال حين طُلب منه ذلك: "إني لم أبعث لعّانًا، وإنما بعثت رحمة." (مسلم)

10) إحكام القرآن ووضوحه

تفتتح سورة هود بإعلانٍ بالغ الدلالة عن دقة القرآن وبيانه:

الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (هود: ١)

أي أن آياته **محكمة** في ألفاظها ومعانيها، ثم **مفصلة** في بيانها وهدايتها: موجزة اللفظ، غنية المعنى، واضحة لمن أراد الهدى، عميقة لمن أراد التدبر.

ويبيّن القرآن في موضع آخر أن آياته نوعان:

- **محكمات** :واضحات قاطعات، عليها بناء أصول الدين والعمل.
- **متشابهات** :ذات طبقات في المعنى، تحتاج علمًا وتدبرًا وحكمة في الفهم.

والمتشابهات كثيرًا ما تمس قضايا العمران والعدل والحكم والتعليم والاقتصاد والعلوم والثقافة؛ فتتسع دلالاتها لأهل الاختصاص، وتنمو ثمراتها مع الزمن والتأمل، لتقود المجتمعات إلى الاستقامة والتوازن والرشد.

خاتمة

تدعو آيات الجزء الحادي عشر القلب أن يسمو فوق الزائل ويطلب الباقي. فهي تعلم أن الحق والصدقة والصبر ووضوح الوحي—أركان الحياة ذات المعنى. ومن خلال هذه الجواهر، ينادي القرآن المؤمنين إلى الإخلاص، وإقامة العدل، والسير بالرحمة.

جواهر من الجزء الثاني عشر: النبوّة ومصير الحضارات

(هود 11:6 – يوسف 12:52)

مقدمة

يتناول **»جواهر من الجزء الثاني عشر «**بعضًا من أعمق الموضوعات المضمّنة في هذا الجزء، الذي يمتد من أواخر سورة هود إلى بدايات سورة يوسف. ويجمع تأملاتٍ محورية حول **الرزق الإلهي**، و**قيام الأمم وسقوطها**، و**قوة الاستغفار والتوبة**، و**الدور التحويلي للقصص القرآني** .ومن خلال هذه اللآلئ المختارة يُدعى القارئ ليرى كيف أن آياتٍ نزلت قبل أربعة عشر قرنًا ما تزال تُضيء أزمات الحاضر وآماله وقراراته. وتُقدَّم كل «جوهرة» على أنها مادةٌ للتدبر ودليلٌ عملي لإعادة بناء الداخل، والمساهمة في إقامة حضارةٍ عادلةٍ متمحورة حول الله.

1) الرزق

تُرسّخ هذه الآية منظورًا تأسيسيًا :**الرزق نظامٌ رباني**، ليس حدثًا عشوائيًا ولا نتيجةً خالصة لتخطيط الإنسان. يقرر الله أنه تكفّل برزق كل مخلوق؛ من أصغر دابةٍ تحت صخرة، إلى أعظم حضارةٍ على وجه الأرض.

وَمَا مِن دَآبَّةٍۢ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ (هود: ٦)

هذا الضمان يمنح المؤمن **أمانًا نفسيًا عميقًا** ويمنع خوف الفقر من السيطرة على القلب، كما يقتلع **الكِبْر**؛ إذ لا يمكن لأي قوةٍ أو حيلةٍ أن "تخلق" الرزق استقلالًا. وسورة هود مليئة بأخبار أممٍ أُهلكت؛ فتُعلّمنا هذه الآية أن الازدهار لا يأتي بالتمرد والتحايل، بل **بالثقة والسعي** و**الاستقامة الأخلاقية** على أمر الله.

2) دلالة الماء قبل الخلق

إن تفسير الآية التالية وما يشبهها تفسيرًا دقيقًا قد يحتاج إلى خبراتٍ متقدمة في مجالات كعلم الكونيات والفيزياء الفلكية لفهم إشارات الخلق. وتشير الآية إلى أنه **قبل خلق السماوات والأرض** كان **الماء** حاضرًا:

وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ... (هود: ٧)

وقد يُفهم ذكر العرش على الماء بوصفه تعبيرًا عن **سلطان الله السابق للكون** وتصرّفه في الخلق قبل تفصيل صورته، مع الإيحاء بأن الماء خُلق مادةً محورية للحياة وربما سبق خلق السماوات والأرض بصورتهما المعهودة. ويعضّد ذلك قوله تعالى:

...وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ... (الأنبياء: ٣٠)

وقد تكون آيتان أخريان ذات صلة بفهم مراحل تكوّن الكون: ففي الأنبياء يُشار إلى أن السماوات والأرض كانتا **رَتقًا** ثم فُتِقتا، وهو ما شبّهه كثيرون بمفهوم "الانفجار العظيم" من حيث الصورة العامة:

أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَا ... (الأنبياء: ٣٠)

وفي فصلت يرد وصف السماء بأنها كانت **دخانًا** في مرحلة مادية قبل التشكّل:

ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ ... قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ (فصلت: ١١)

أما عن هيئة الكون الأولى التي تمدّد عنها، فقد توحي آية طيّ السماء كطَيِّ السجل للكتب بصورةٍ مجازيةٍ لبنيةٍ ممتدة لا لنقطةٍ بسيطة:

يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلۡكُتُبِۚ كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ... (الأنبياء: ١٠٤)

إن بناء نموذج كوني تفصيلي من هذه الآيات يتجاوز القراءة المباشرة، لأنه يتطلب معارف علمية بالغة التخصص. لكن فهمًا عامًا متحفظًا يبيّن قدرًا من التوافق الواسع مع العلم الحديث الذي يتحدث عن مرحلة أولى "دخانية/غازية/بلازمية" للكون، ويُقر بإمكان تكوّن الماء أو مكوناته في مراحل مبكرة من تاريخ الكون على وجهٍ عام ينسجم مع الإشارات القرآنية.

3) اختبار الإبطال (Falsification Test)

القرآن هو المعجزة الخالدة للنبي محمد ﷺ، بخلاف معجزات الأنبياء السابقين التي كانت غالبًا حسية مرتبطة بزمانها. وهو يقيم **اختبارًا فريدًا للإبطال** :إن زعم المشككون أنه مُفترى، فليأتوا بسورٍ مثله، مع الحرية في الاستعانة بمن شاءوا.

وقد جاء التحدي متدرجًا: أولًا **عشر سور**، ثم خُفِّض التحدي إلى **سورة واحدة** في مواضع أخرى، لقطع العذر وتأكيد الثقة بكونه غير قابل للمضاهاة لغةً وبيانًا ومضمونًا.

أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ (١٣) فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ (هود ١٣-١٤)

ويمثل هذا التحدي صورةً لافتة لما يُسمّى اليوم "قابلية الإبطال"، إذ يعلن كيف يمكن—من حيث المبدأ—نقض دعوى الوحي. وقد صارت هذه الفكرة معيارًا مهمًا في فلسفة العلم الحديثة، كما في كلام كارل بوبر (1934) عن ضرورة أن تكون الفرضية قابلة للاختبار بما قد يثبت بطلانها. ومثال ذلك في العلم: نظرية النسبية العامة لأينشتاين التي تعززت لأنها قدمت تنبؤات قابلة للاختبار كظاهرة انحراف ضوء النجوم قرب الشمس.

ومنذ أربعة عشر قرنًا ظل تحدي القرآن مفتوحًا: أن يأتي البشر بسورةٍ واحدةٍ تماثله في كليته، ومع ذلك بقيت دعوى الإعجاز قائمة. وهكذا يقدم القرآن اختبار الإبطال شاهدًا حيًا على مصدره الإلهي لكل زمان وجمهور.

4) وحي صناعة السفن

علّم الله نبيَّه نوحًا عليه السلام صناعة السفينة **وحيًا** لا بالتجربة والخطأ، وبإشرافٍ إلهي مباشر. فتغدو صناعة الفلك مشروعًا روحيًا وتقنيًا معًا.

وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ (هود: ٣٧)

تقرر الآية مبدأً مهمًا: أن الوحي قد يحمل أو يلهم **معرفة تقنية** ضرورية لبقاء الإنسان وازدهاره. كما تسقط الوهمَ القائل بالفصل الحاد بين "المعرفة الدينية" و"المعرفة التقنية"، إذ هداية الله تشمل كليهما حين يكونان في خدمة صلاح البشر.

ثم جعل الله علامةً فاصلة لوقت الركوب:

حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ... (هود: ٤٠)

وجعل عبارة **وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ** علامة بدء الركوب. وبما أن الله أوحى إلى نوح كيفية بناء السفينة، يمكن—على سبيل التأمل—أن توحي هذه الصورة بإشارةٍ تقنية مرتبطة بسخونةٍ وغلیانٍ وبخارٍ مضغوطٍ يكون علامةَ بدء التنفيذ في موعدٍ محدد. وسواء دلّت العبارة على شيءٍ من هذا أو لا، فإنها تربط بين **إشارةٍ ماديةٍ محددة** و**جدولٍ زمنيٍّ رباني**.

والدرس المركزي: أن علوم العمران التي تقوم عليها الحضارات تنشأ في جذورها من **مَلَكاتٍ وتوفيقٍ وإلهامٍ** هو من فضل الله، حتى وإن تطورت لاحقًا بجهد الإنسان.

5) قوة الاستغفار

قدم هود عليه السلام لقومه معادلةً من شقين :**استغفار** ثم **توبةٌ ورجوع** .وفي المقابل وعد الله بخيرات ملموسة :**مطرٍ مدرار** و**زيادة قوة** و**ثبات مجتمع**.

وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ ٥٢. (هود: ٥٢)

تقرر الآيات "قانونًا قرآنيًا": أن السلوك الروحي والأخلاقي يؤثر في واقع الحياة. فالاستغفار ليس فعلًا فرديًا سرّيًا فحسب، بل قد يكون آليةً لتجديد المجتمع بإزالة أسباب الانحدار المعنوية. وحين يتفشى الفساد، فإن الاستغفار الجماعي يعيد المجتمع إلى الانسجام مع النظام الإلهي، ولذلك يربط الأنبياء كثيرًا بين التوبة وبين الرخاء واستعادة التوازن الاجتماعي والاقتصادي والبيئي.

6) دور الإنسان بوصفه بانيًا في الأرض

هذه الآية من أوضح نصوص القرآن في بيان **التكليف العمراني** للإنسان: خلقه الله من الأرض ثم استخلفه ليُعمّرها ويصلحها، فجعل بناء الحضارة نوعًا من العبادة.

هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا ... (هود: ٦١)

ومعنى تعمير الأرض يشمل:

- الزراعة
- العمارة والبنية التحتية
- المؤسسات الاجتماعية
- الحكم والقوانين
- المعرفة والتعليم
- فنون العيش والثقافة
- الاستكشاف العلمي والتقني

فالإنسان أمينٌ وبانٍ، مسؤول عن إقامة عالمٍ عادلٍ مزدهر. والخراب والفساد وإفساد البيئة خيانةٌ لهذه الأمانة، ولذلك جاءت دعوات الأنبياء لإرجاع العمران إلى رسالته الربانية.

7) الصيحة كسلاحٍ إلهي

يصف القرآن **الصيحة** كوسيلة هلاك لقوم ثمود (نبيهم صالح) وقوم مدين (نبيهم شعيب). وكانت صيحةً مباغتةً قاصمةً جعلتهم صرعى في ديارهم:

وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ (هود: ٦٧)

وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ(هود: ٩٤)

قدّم القرآن **»الصيحة «**على أنها حدثٌ صوتيٌّ عنيفٌ ومفاجئ، أسقط القوم على وجوههم صرعى في لحظة واحدة، بينما بقيت مساكنهم قائمة. ويُظهر العلم الحديث أن الموجات الصوتية شديدة القوة يمكن أن تُلحِق أضرارًا بالغة بالأعضاء الحيوية والجهاز العصبي. فمستويات الصوت التي تتجاوز نحو **120ديسيبل** تُسبِّب ألمًا شديدًا، وحوالي **150ديسيبل** قد تؤدي إلى تمزّق طبلة الأذن، أما المستويات الأعلى من ذلك (أكثر من **200ديسيبل** (فقد تُفضي إلى إصابات داخلية قاتلة. ويُعطي هذا لمحةً عن كيفية إمكان عصفٍ إلهيٍّ مرسَلٍ أن يُهلك جماعةً كاملة مع بقاء البُنى الحجرية في معظمها سليمة، كما تشهد بذلك البقايا الأثرية المنسوبة إلى قوم ثمود التي ما تزال قائمة في شبه الجزيرة العربية.

وفي عصرنا الحاضر، طوّرت بعض الدول أجهزةً صوتية غير قاتلة للسيطرة على الحشود ضمن نطاق 120–150 ديسيبل، غير أن سلاحًا صوتيًا مُوجَّهًا بدقة وقادرًا على تدمير مدينة بأكملها—على شاكلة «الصيحة»—لا يزال خارج حدود القدرة البشرية.

أمّا روحيًّا، فإن هذه الصيحة ترمز أيضًا إلى أن الفساد الأخلاقي إذا ترسّخ واشتدّ، فإنه يلقى في النهاية انهيارًا مفاجئًا بقدرٍ إلهي. وهي، لقارئ العصر، تذكيرٌ بعِظَم القوى الكامنة في الخلق—الصوت، والضغط، والموجات الزلزالية—وبالهشاشة القصوى لغرور الإنسان أمام قدرة الله سبحانه وتعالى.

8) التساؤل حول أبدية النار (تأملٌ تدبري)

تصف الآيات مصير فريقين، وتلفت صياغتها العربية النظر إلى دقة التعبير وما قد يفتحه من تأمل:

يَوۡمَ يَأۡتِ لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ (١٠٥) فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَشَهِيقٌ (١٠٦) خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ (١٠٧) ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۖ عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ (هود: ١٠٥- ١٠٨)

يدعو التعبير العربي إلى تدبّرٍ دقيق: هل كلُّ عاصٍ محكومٌ عليه بالخلود الأبدي، أم أن هناك أصنافًا ودرجات؟ فالقرآن يُنذر إنذارًا شديدًا، لكنه يستخدم لغةً دقيقة تثير التساؤل عمّا إذا كان خلود النار يشمل الجميع، أم يختصّ بفئاتٍ معيّنة، وأن هذا الفهم يتوقّف على هذه الدقائق اللفظية.

يدور كثير من النقاش حول عبارة:
﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَاوَاتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾
أي :«ماكثين فيها ما دامت السماوات والأرض، إلا ما شاء ربك».

أمّا في شأن الجنّة، فإن هذا النقاش يُحسم بقوله تعالى:
﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾

أي: «عطاءً غير منقطع»، وهو تعبير يرفع أيّ احتمال لانتهاء نعيم الجنّة. أمّا في شأن النار، فإن الآية تُختَم بقوله تعالى :﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾
وهو ما يترك مجالًا لتأمّل العلماء في مدى تعلّق المشيئة الإلهية بمدّة العذاب وحدوده.

وتشير بعض الآثار المنسوبة إلى ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهما إلى أن المكث في النار لبعض الناس قد لا يكون أبديًّا على الإطلاق. فقد نُقل عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال في تفسير قوله تعالى:
﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾:
أي لا يموتون فيها ولا يخرجون منها ما دامت السماوات والأرض،
وأمّا قوله:
﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾
فقال: هو استثناءٌ من الله، أي إن الله يأمر النار أن تأكلهم.

ومثله ما رُوي عن ابن مسعود رضي الله عنه، إذ تكلّم عن زمانٍ تأتي فيه ساعة تكون فيها جهنم خالية بعد أن يمكث أهلها فيها أحقابًا طويلة، فقال:
«لَيَأْتِيَنَّ عَلَى جَهَنَّمَ زَمَانٌ تَخْفِقُ أَبْوَابُهَا لَيْسَ فِيهَا أَحَدٌ، وَذَلِكَ بَعْدَ مَا يَلْبَثُونَ فِيهَا أَحْقَابًا»
أي: «سيأتي على جهنم زمانٌ تصفق فيه أبوابها وليس فيها أحد، وذلك بعد أن يمكثوا فيها أحقابًا».
ثم استشهد بقوله تعالى:
﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا (٢١) لِّلطَّاغِينَ مَآبًا (٢٢) لَّابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ (النبأ: 21–23).

ومن ثمّ، فإن هذا المقطع يحثّ القارئ على التعمّق في دراسة مفردات القرآن المتعلّقة بالمدّة والدوام، مثل ﴿أَبَدًا﴾، و﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَاوَاتُ وَٱلْأَرْضُ﴾، وعبارات الاستثناء كقوله :﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾، مع التمييز بين الخلود المطلق غير المقيَّد، وبين المكث الطويل المشروط أو المعلَّق بالمشيئة. وهو لا يُسقِط بالضرورة احتمال العذاب الأبدي لبعض الناس، لكنه يفتح بابًا أعمق للتأمّل في كيفية اجتماع رحمة الله وعدله عند تطبيقهما على درجات متفاوتة من الكفر والظلم.

9) خطر الميل إلى الظالمين

هذه الآية من أشد آيات القرآن تحذيرًا من الارتباط بالظالمين. فهي لا تنهى عن نصرتهم فقط، بل تنهى عن أدنى **ركونٍ قلبي** إليهم، لأن التواطؤ المعنوي يُعد مشاركةً في الظلم.

وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ(هود: ١١٣)

وفي عالمٍ تكثر فيه أنماط الاستبداد والفساد البنيوي، يأمر المؤمن: لا تمنح الظالم شرعيةً، ولا تستر ظلمه، ولا تصمت صمتًا يُفهم منه الرضا. فالحياد المريح أمام الظلم قد يدخل في معنى **الرُّكون** .والتاريخ يشهد: تنهار المجتمعات ليس بظلم الظالمين وحده، بل أيضًا بتخاذل من عرف الحق فآثر السلامة.

10) دور القصص في القرآن

يقرر الله أن القصص القرآني هو أبلغ أنواع السرد، لا لأنه يُسلّي، بل لأنه يُوصل الحق بأعمق أثرٍ نفسيّ وعقليّ. فالقصص يخاطب العقل والقلب والخيال الأخلاقي، ويتجاوز مقاومة النفس، ويثبت في الذاكرة ويصوغ الشخصية. والقصص في الوحي منهجُ تربيةٍ لا خيال، وهو مرايا لكل زمن.

وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (هود: ١٢٠)

كما وصف الله قصة يوسف بأنها **أحسن القصص**:

نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ ... (يوسف: ٣)

ومن سورة يوسف يتبين لطالب السرد عناصر البناء القصصي القوي: بطلٌ محوري (يوسف)، خصومٌ فاعلون (إخوته وامرأة العزيز ومن دار في فلكهما)، حادثةٌ مُفجِّرة (الرؤيا)، صراعاتٌ متشابكة، قوسٌ قصصي موحد من بداية الرؤيا إلى تحققها، و"رمزٌ عائد" يتكرر حضوره (القميص)، وتحولٌ تدريجي للشخصية من طفلٍ ضعيف إلى عبدٍ ثم سجينٍ ثم وزيرٍ أمين، ومشاهدُ بصريةٌ درامية، ثم خاتمةٌ تبلغ ذروة الإنصاف وتمام المصالحة.

وتجربة يوسف رحلةٌ إنسانية عبر الخيانة والافتراء والظلم والإغراء، لكنه بقي ثابتًا بالصبر والطهارة والتوكل، فصار نموذجًا خالدًا لكيف تحوّل الشدائد—مع الثبات على الله—إلى رفعةٍ وتمكين.

خاتمة

تكشف «جواهر الجزء الثاني عشر» نسيجًا مترابطًا: ربٌّ يضمن الأرزاق، ويهدي الأنبياء، ويختبر الحضارات، ويفتح أبواب المغفرة مع التحذير من الحساب. وتبين قصص نوح وهود وصالح وشعيب ويوسف أن التاريخ ليس عشوائيًا، بل تصوغه الخيارات الأخلاقية والاستجابة للوحي.

وللقارئ المعاصر تدعو هذه الآيات إلى :**التوكل**، و**الاستغفار**، و**الشجاعة أمام الظلم**، و**التفاعل الخلّاق مع العالم بوصفنا بناةً في الأرض** .فإذا تحولت هذه الدروس إلى سلوكٍ حيّ، صار الجزء الثاني عشر برنامجًا عمليًا للتجديد الفردي والنهضة الحضارية.

جواهر الجزء الثالث عشر: الشكر والذكر والتوحيد الخالص

(يوسف 12:53 – إبراهيم 14:52)

مقدمة

إنّ جواهر الجزء الثالث عشر تخاطب القلب مباشرة، وتخاطب كذلك مستقبل أمتنا. فهي آياتٌ تنقل الإنسان من الظلمات إلى النور، وتعلّمنا كيف نعيش الشكر والذكر، وتحذّرنا من صور الشرك الخفية الدقيقة، وتوضح الحدّ الفاصل بين الحق والباطل. ومن خلال قصص الأنبياء وابتهالاتهم—وخاصة قصة يوسف عليه السلام—تبيّن كيف تصنع القيادة الصادقة، والتواضع، والتوحيد المخلص، شخصية الفرد ومصير الجماعة.

1) مؤهلات القيادة: الأمانة والعلم

أظهر نبيُّ الله يوسف عليه السلام أن طلب الولاية أو المنصب جائزٌ إذا كان الإنسان مؤهّلًا حقًّا للقيام به:

وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ (٥٤) قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ (يوسف: ٥٤ ، ٥٥)

وتُبرز الآيات معيارين جوهريين لكل مسؤولية:

- **الأمانة (أمانة) :**النزاهة والصدق والإخلاص والاستقامة الأخلاقية.
- **الكفاءة (علم) :**المعرفة والمهارة والقدرة العملية على أداء المهمة.

وعلى الحكيم—في القيادة أو التعيين أو التوظيف—أن يزن الناس بهذه المعايير، لا بالمحاباة ولا بالقرابة ولا بالانتماء. وقد حذّر النبي ﷺ من تقديم غير الأكفّاء بدافع الهوى أو العصبية:

عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: **«من استعمل رجلًا من عصابة وفيهم من هو أرضى لله منه، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين»** رواه الحاكم.

وعن أبي بكر أن النبي ﷺ قال: **«من ولي من أمر المسلمين شيئًا فأمر عليهم أحدًا محاباة فعليه لعنة الله لا يقبل الله منه صرفًا ولا عدلًا حتى يدخله جهنم»** رواه الحاكم.

فالقيادة **أمانة**، ووضع الرجل المناسب في المكان المناسب عبادةٌ، ووضع غيره خيانةٌ وغشّ.

2) لا تُعنِّف عند لحظة الندم

إذا أساء إليك أحد ثم رجع إليك صادقًا نادمًا، فليس من خلق الصالحين أن يذلّه بإحياء أخطائه الماضية.
ويوسف عليه السلام قدّم نموذجًا رفيعًا؛ فعندما تحققت رؤياه واجتمع بأهله، لم يذكر حادثة البئر—مع أنّها أشدّ مرارةً من السجن—بل اختار لغةً ألطف، ونسب الفتنة إلى الشيطان، وركّز على لطف الله:

وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّاۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ (يوسف: ١٠٠)

ومن لطائف الدروس هنا:

- **صونُ كرامة التائب :**قلبٌ يطلب الصفح لا يُكسَر بتذكيره بالماضي.
- **حفظُ روابط الأسرة :**لم يُحرج إخوته أمام والديه.
- **إرجاعُ الفتنة إلى وسوسة الشيطان لا إلى حقدٍ شخصي :**فتُفتح أبواب المصالحة والشفاء.
- **الانشغال بلطف الله لا بفتح الجراح :**ذكر السجن ولم يذكر البئر؛ لأنه ألطف وقعًا وأبعد عن الإيلام.

هذا خُلُقُ من يريد إصلاح القلوب لا الانتقام، ومن يقدّم الشفاء على التشهير.

3) التواضع

في دعاء يوسف عليه السلام تظهر قمّة التواضع: بدأ بالاعتراف بنعم الله عليه، ثم أثبت قدرة الله الخالقة وولايته، ثم ختم بأعظم مطلب: حسن الخاتمة، واللحاق بالصالحين—مع أنه نبيٌّ وملكٌ:

رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ (يوسف: ١٠١)

فهو—مع كل ما أوتي من علمٍ ومُلكٍ ورفعة—لا يغترّ، ولا يرى نجاحه ضمانًا للنهاية، بل يتضرّع :**توفّني مسلمًا وألحقني بالصالحين.**
وهذا هو التواضع الحق: ليس إنكار النعمة، بل إدراك أن النعمة لا تضمن السلامة إلا برحمة الله.

4) احذر الشرك الخفي

تأتي آيةٌ تهزّ القلب وتوقظه: قد يؤمن كثيرٌ من الناس بالله، ولا يسجدون لصنمٍ ظاهر، ومع ذلك يقع بعضهم في شركٍ خفيّ دون شعور:

وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ (يوسف: ١٠٦)

فالشرك ليس محصورًا في عبادة الأصنام، بل منه **الشرك الأصغر** و**الشرك الخفي** الذي يفسد النيات ويُنقص التوحيد.

ومن أمثلة الشرك الأصغر:

- **الرياء :**أن يعمل العبادة طلبًا لمدح الناس أو نظرهم.
- **الحلف بغير الله :**كالحلف بالآباء أو الشرف أو المكان.
- **التعلّق بالخرافات والتمائم :**باعتقاد أنها تجلب نفعًا أو تدفع ضرًّا بذاتها.

وأما الشرك الخفي فهو أدقّ، ومن صوره:

- أن يعمل لله ظاهرًا لكنه يزيّن العمل أساسًا لرضا الناس.
- ألفاظٌ تُسوّي بين الخالق والمخلوق في التعليق، مثل: "ما شاء الله وشئت" بدل "ما شاء الله وحده."
- التصرف أو الكلام كأن الرزق أو الأمان أو المستقبل بيد البشر استقلالًا، لا كأسباب تحت سلطان الله.
- تقديم القوانين والأهواء على هداية الله في الولاء والاعتقاد الداخلي.

وتسبقها آيةٌ تشرح جذر المشكلة:
وَكَأَيِّن مِّنۡ ءَايَةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يَمُرُّونَ عَلَيۡهَا وَهُمۡ عَنۡهَا مُعۡرِضُونَ (يوسف: ١٠٥)

فالغفلة عن آيات الله في الكون والحياة تُضعف توحيد القلب، حتى يتسرّب إليه الاعتماد على غير الله دون أن يشعر.

تحذيرات نبوية من الشرك الخفي
عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال:
« الشِّركُ أخفى في أمَّتي من دَبيبِ النَّملِ علَى الصَّفا في اللَّيلةِ الظَّلماءِ وأدناهُ أن تُحبَّ علَى شيءٍ منَ الجَورِ ، أو تُبْغِضَ علَى شيءٍ منَ العَدلِ وَهَلِ الدِّينُ إلَّا الحبُّ في اللَّهِ والبُغضُ في اللَّهِ ؟» [حلية الأولياء 368/8].

وعن معقل بن يسار قال: قال النبي ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه:
«للشِّركُ فيكم أخفى من دبيب النمل... ألا أدلّك على شيء إذا قلته ذهب عنك قليله وكثيره؟ قل: **اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم**» [الأدب المفرد للبخاري].

وعن محمود بن لبيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر» قالوا: وما الشرك الأصغر؟ قال: «الرياء...» [مسند أحمد].

وعن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال؟ الشرك الخفي: أن يقوم الرجل يصلي فيزيّن صلاته لما يرى من نظر رجل» [ابن ماجه].

فطُهر التوحيد يحتاج مراقبةً مستمرة للقلب واللسان والنية.

5) الدعوة: مسؤولية كل مسلم

كل مسلم—على قدر علمه وبصيرته—مكلّف أن يدعو إلى الله فيما يعلم، بصدقٍ ووضوح، لا بتخمينٍ ولا بغير علم. قال تعالى:

قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (يوسف: ١٠٨)

والشرط المحوري هنا :**البصيرة**—أي وضوح الفكرة والدليل وحسن ترتيب الأولويات.

وقد قال النبي ﷺ:
«إن الله تعالى يحبُّ معاليَ الأمور وأشرافَها، ويكره سفسافَها» (الطبراني).

ومثال صفاء الرسالة وتقديم لبّ الإسلام ما قاله جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه للنجاشي، حين لخّص الدعوة في التوحيد والأخلاق والعبادات الكبرى.

(أَيُّهَا الْمَلِكُ بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولاً فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ لِنُوَحِّدَهُ وَنَعْبُدَهُ وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ الْحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ وَصِلَةِ الرَّحِمِ وَحُسْنِ الْجِوَارِ وَالْكَفِّ عَنْ الْمَحَارِمِ وَالدِّمَاءِ وَنَهَانَا عَنْ الْفَوَاحِشِ وَقَوْلِ الزُّورِ وَأَكْلِ مَالَ الْيَتِيمِ وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً وَأَمَرَنَا بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّيَامِ)) [أحمد عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ]

فالفرق الكبير بين سلف الأمة وكثيرٍ من الناس اليوم أنهم كانوا يملكون فهمًا مرتبًا :يميّزون الأصول عن الفروع، ويبدأون بالتوحيد ومكارم الأخلاق وأركان العبادة.

6) أمثال تقابل الحق والباطل

يضرب الله مثلًا عجيبًا يوضّح كيف يعلو الباطل ظاهرًا ثم يزول، بينما يبقى الحق نافعًا ثابتًا:

أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗاۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَـٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَـٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ (الرعد: ١٧)

فالزَّبد يعلو ويضجّ ويبدو غالبًا، لكنه **أجوف** يذهب سريعًا، أما الماء الصافي—والمعدن الخالص بعد الصهر—فيبقى وينفع. وهكذا الحق: قد يُحجَب لحظةً بضجيج الباطل، لكنه أعمق وأبقى.

الدروس المستفادة من هذا المثل

- لا تنخدع بما يبدو مهيمنًا على السطح.
- الباطل كثيرًا ما يعلو سريعًا وبصوتٍ عالٍ كالزَّبد، لكنه بلا وزن ولا جوهر.
- الحقّ قد يحتاج وقتًا ليُدرَك، لكنه راسخٌ مُغذٍّ ودائم.
- ما ينفع الناس—من العدل، والإخلاص، والتوحيد، والصلاح—هو الذي يبقى على المدى الطويل.

ويعلّم هذا المثل المؤمنين الصبرَ والثقة، وألّا يُخدعوا بالمظاهر؛ فالباطل قد يبدو غالبًا أو صاخبًا زمنًا، لكنه بلا أساسٍ متين. أمّا الحقّ، وإن حُورِب أو حُجِب، فهو ثابت الجذور، وسيغلب في النهاية ويبقى نفعُه للناس.

7) الذكر: سكينة القلب

الطريق إلى السلام الداخلي ليس في اللهو ولا في التكديس، بل في ذكر الله:

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ (الرعد: ٢٨)

وجعل الله الذكر الكثير سببًا لصلاته الخاصة على المؤمنين وصلات الملائكة، لإخراجهم من الظلمات إلى النور:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا [41] وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا [42] هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا (الأحزاب ٤١–٤٣)

وجاء في الحديث:
« أنَّ رجُلًا قال: يا رَسولَ اللهِ، إنَّ شَرائِعَ الإسلامِ قد كَثُرَت عليَّ، فأخبِرْني بشيءٍ أتشَبَّثُ به، فقال: لا يزالُ لِسانُك رَطبًا مِن ذِكرِ اللهِ تعالى » (الترمذي وابن ماجه).

وفي حديث آخر:
قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ وَخَيْرٌ لَكُمْ

مِنْ إِنْفَاقِ الذهَب وَالوَرِقِ وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ؟» قَالُوا: بَلَى. قَالَ: «ذِكْرُ الله تَعَالَى». أخرجه الترمذي وابن ماجه.

وَعَنْ سَعْدِ بنِ أَبِي وقَاصٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم فَقَالَ: «أَيَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَكْسِبَ، كُلَّ يَوْمٍ أَلْفَ حَسَنَةٍ»؟ فَسَأَلَهُ سَائِلٌ مِنْ جُلَسَائِهِ: كَيْفَ يَكْسِبُ أَحَدُنَا أَلْفَ حَسَنَةٍ؟ قَالَ: «يُسَبِّحُ مِائَةَ تَسْبِيحَةٍ فَيُكْتَبُ لَهُ أَلْفُ حَسَنَةٍ أَوْ يُحَطُّ عَنْهُ أَلْفُ خَطِيئَةٍ». أخرجه مسلم. وفي لفظ: «تُكْتَبُ لَهُ أَلْفُ حَسَنَةٍ وَتُحَطُّ عَنْهُ أَلْفُ سَيِّئَةٍ». أخرجه أحمد والترمذي.

فالذكر يرفع الدرجات، ويمحو السيئات، ويثبت القلب، ويجعل حياة المؤمن مضيئةً على مدار اليوم.

8) الهداية الحقيقية: من الظلمات إلى النور

الهداية في القرآن لا تقتصر على الشعائر أو أعمال التعبّد الفردي، بل تقدّم إطارًا متكاملًا للنجاح في الدنيا والآخرة معًا. فهي تُعلّم الإنسان كيف يؤمن، وكيف يعبد، وكيف يفكّر، وكيف يعيش، وكيف يبني مجتمعاتٍ عادلةً أخلاقيةً مزدهرة.

إن «الظُّلُمات» التي يُخرج الوحيُ البشريةَ منها لا تقتصر على الضلال الروحي فحسب، بل تشمل أيضًا الظلمات الاجتماعية والأخلاقية والحضارية: الجهل، والفقر، والظلم، والفساد، والضعف. وكذلك فإن «النور» القرآني لا يقتصر على أحكام الحلال والحرام، بل هو رؤية شاملة للوجود، تُشكّل المعرفة، والخلق، والمجتمع، والغاية، والتفاعل مع سنن الكون، ومع قوانين نهوض الأمم وسقوطها.

﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ (إبراهيم: 1)

وتبرز هنا دقّةٌ لغويةٌ بليغة:

- جاء **النور (نُور)** بصيغة المفرد، لأن الحق واحد.
- وجاءت **الظلمات (ظُلُمَات)** بصيغة الجمع، لأن طرق الباطل والانحراف متعدّدة.

وفي اللغة الإنجليزية، يمكن لكلمة light تُستعمل للمفرد والجمع، بينما نادرًا ما تُستعمل كلمة *darkness* بصيغة الجمع، مما يجعل الاستعمال القرآني العربي بالغ الدقة والدلالة.

ورسالة الوحي واحدة على الدوام: أن يقود الناس من ضباب الحيرة والضلال إلى وضوح الحق والغاية. وكانت هذه أيضًا رسالة نبي الله موسى عليه السلام:

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ﴾ (إبراهيم: 5)

9) قيمة الشكر

الشكر عبادة بالقلب واللسان والجوارح، وجزاؤه الزيادة، والكفران عاقبته أليمة:

وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ (إبراهيم: ٧)

وقال تعالى لآل داود:
ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ (سبأ: ١٣)

الشكر الحقيقي هو أن يحيا الإنسان حياةً تعكس وعيًا بنِعَمِ الله، وأن يستخدمها في طاعته. فكثيرٌ من الناس يُقِرّون بالنِّعَم بألسنتهم، لكن قلّةً منهم تُحوِّل هذا الإدراك باستمرار إلى عملٍ مُلتزِمٍ وطاعةٍ صادقة.

المكوّنات العملية للشكر تشمل:

1. نسبة كل نعمة إلى الله، لا إلى النفس ولا إلى الأسباب الدنيوية وحدها.
2. استعمال النِّعَم في الطاعة، وضمن الحدود التي حدّدها الله.
3. عدم السماح للنِّعَم أن تُلهي عن المُنعِم سبحانه.
4. عدم اتخاذ النِّعَم وسيلةً للكبر أو التعالي على الآخرين.
5. الإكثار من حمد الله وشكره باللسان والقلب معًا.

ومن الأبعاد الكبرى للشكر حفظُ المواهب، والفرص، والموارد، والقدرات التي استودعك الله إيّاها، وتنميتها واستثمارها. فهي لم تُمنَح لتُكنَز أو تُهمَل أو تُهدَر، بل لتُستخدَم في وجوه الخير والنفع.

وقد قسّم الله المهارات ونقاط القوّة بين الناس عن قصد، ليخدم بعضهم بعضًا، ويتكاملوا ويتساندوا. فكل نعمة تحمل مسؤولية، والله مطّلعٌ على الدوام على كيفية استخدام كل إنسان لهذه الأمانات الإلهية أو تفريطه فيها.

10) قوة الكلمة

يضرب الله مثلًا للكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة:

أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ أَصۡلُهَا ثَابِتٞ وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ (٢٤) تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذۡنِ رَبِّهَا ... (إبراهيم ٢٤–٢٥)

وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجۡتُثَّتۡ مِن فَوۡقِ ٱلۡأَرۡضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٖ (إبراهيم: ٢٦)

الكلمات ليست أصواتًا فارغة؛ فهي تُشكّل القلوب، وتبني العلاقات، وتوجّه المصائر. فالإنسان العادي ينطق بعشرات الآلاف من الكلمات يوميًا، يُنسى معظمها فور صدورها، غير أن كل كلمة تترك أثرًا في قائلها وفيمن يسمعها.

الكلمة الطيّبة يمكن أن تبني نفسًا، وترفع أسرةً، وتُصلِح مجتمعًا، بل وقد تُغيِّر أمةً بأكملها. أمّا الكلمة الفاسدة فقد تُحطِّم الثقة، وتُفسِد الخُلُق، وتُشعِل الكراهية، وتُدمِّر حياةً كاملة.

ولأنّه لا أحد—مهما بلغ من الصلاح—يستطيع أن يضمن أن يكون كل كلامه صوابًا مرضيًّا عند الله، فإن المؤمن في أمسّ الحاجة إلى عونٍ إلهيٍّ يُثبّت لسانه ويُزكّيه. وهذا العون يمنحه الله لمن يجاهدون في الإيمان والإخلاص، كما قال تعالى:

يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ (إبراهيم: ٢٧)

ويُقوّي **»القول الثابت «**المؤمنَ في ثلاث محطاتٍ حاسمة:

1. في الحياة، إذ يهدي كلامه إلى الحق والعدل والإخلاص.
2. عند الموت، حيث تكون الحاجة إلى الوضوح والثبات في أشدّها.
3. في الآخرة، في المواقف التي ترتجف فيها القلوب وتتعثر فيها الألسنة.

خاتمة

تدعو جواهر الجزء الثالث عشر كل مؤمن إلى مراجعة حال قلبه، واتجاه حياته، وأسس مجتمعه. فهي تؤكد أن النجاح الحقيقي يقوم على الإيمان الصادق، والشكر العملي، والذكر الدائم، والحذر من أدقّ صور الشرك.

فإذا ترسخت هذه المعاني في النفس—كالشجرة الطيبة—خرجت كلماتنا وأعمالنا ومؤسساتنا من الظلمات إلى النور، وأصبحنا تجسيدًا حيًّا للهداية القرآنية التي أنزلها الله ليرتقي بها الأفراد وتنهض بها الأمم.

جواهر الجزء الرابع عشر: الرحمة والابتلاء والجمال الأخلاقي

(إبراهيم 14:53 – النحل 16:128)

مقدمة

يجمع الجزء الرابع عشر من القرآن الكريم كوكبةً غنيّة من الآيات التي تكشف في آنٍ واحد ثِقَل المسؤولية الإنسانية وسَعة الرحمة الإلهية. فهو يبيّن كيف قد يسمح الله—بحكمته—بامتداد الظلم زمنًا، وكيف يكشف استراتيجيات الشيطان، وكيف يُحكِم بنية الوحي من خلال أزواجٍ مقصودة، ومقابلاتٍ أخلاقية، وثنائياتٍ هادفة تُنير طريق الهداية، وتكشف سنن الله في النفس والمجتمع والتاريخ.

1) الاتصالات الإلهية: البنية الكونية لحماية الوحي

يكشف القرآن أن الله أقام نظامًا محكمًا في السماوات يمنع الشياطين من الوصول إلى الأوامر الإلهية قبل تنفيذها:

وَلَقَدۡ جَعَلۡنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ (١٦) وَحَفِظۡنَٰهَا مِن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٍ (١٧) إِلَّا مَنِ ٱسۡتَرَقَ ٱلسَّمۡعَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ مُّبِينٞ (الحجر ١٦ -١٨)

وقد ورد هذا المعنى في مواضع أخرى من القرآن:

إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ (٦) وَحِفۡظٗا مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ مَّارِدٖ (٧) لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ وَيُقۡذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٖ (٨) دُحُورٗا وَلَهُمۡ عَذَابٞ وَاصِبٌ (٩) إِلَّا مَنۡ خَطِفَ ٱلۡخَطۡفَةَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ ثَاقِبٞ (الصافات ٦ -١٠)

وَأَنَّا لَمَسۡنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدۡنَٰهَا مُلِئَتۡ حَرَسٗا شَدِيدٗا وَشُهُبٗا (٨) وَأَنَّا كُنَّا نَقۡعُدُ مِنۡهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمۡعِۖ فَمَن يَسۡتَمِعِ ٱلۡأٓنَ يَجِدۡ لَهُۥ شِهَابٗا رَّصَدٗا (الجن ٨ ،٩)

تثير هذه الآيات أسئلة عميقة حول طبيعة الاتصال الإلهي، ولغة الوحي، وطبيعة الخطاب الذي سمعه أنبياء مثل موسى عليه السلام. والمقصود هنا إبراز البنية المفاهيمية القرآنية للاتصال المحمي.

قبل بعثة النبي ﷺ، كانت الجن تحاول اتخاذ «مقاعد للسمع»، أما بعد بدء الوحي فقد أُغلقت السماء، وشُدّدت الحراسة، وأُقيمت استجابة فورية لأي محاولة اختراق. وهذا يصف تحولًا في «بروتوكول الحماية الكونية» مع بداية الرسالة الخاتمة.

ويقدّم القرآن نموذجًا بالغ الدقة لنظام أمني متعدد الطبقات، يُذكّر المتخصصين اليوم بمفاهيم أمن المعلومات، وجدران الحماية، ورصد الاختراق، والاستجابة الفورية، مما يدل على أن الوحي الإلهي نزل ضمن بنية محفوظة مُحكمة من عند العليم الخبير.

2) الله المتحكّم في جميع الموارد

كل ما في الوجود—ماديًا كان أو معنويًا—مصدره الله وحده، وهو المالك لخزائن كل شيء، يقدّر العطاء زمانًا ومقدارًا ومستحقًا:

وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ (الحجر: ٢١)

ولا تقتصر خزائن الله على الرزق المادي، بل تشمل العلم، والحكمة، والصبر، والسكينة، والشجاعة، وكل خُلُق كريم. وكل نعمة—ظاهرة أو باطنة—تفيض من خزائن الغيب.

ثم يضرب القرآن مثال الماء، أعظم مورد للحياة:

وَأَرۡسَلۡنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَسۡقَيۡنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمۡ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ (الحجر: ٢٢)

فالآية لا تتحدث عن تخزين المطر فقط، بل عن ماء الشرب تحديدًا، وتقرر حقيقة علمية دقيقة: أن الإنسان لا يملك تخزين الماء في جسده، بل يفقده باستمرار، ويحتاج إلى تعويضه، وأن احتباسه دليل مرض. وهكذا يذكّرنا القرآن أن الموارد—حتى داخل أجسادنا—تخضع لتقدير الله وحده.

3) الشيطان يعلم أن الإنسان خُلق للأرض

قال إبليس بعد رفضه السجود لآدم:

قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ (٣٩) إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ (الحجر ٣٩، ٤٠)

يعترف إبليس هنا بحقيقتين:

1. أن ساحة الابتلاء الإنساني هي الأرض.
2. أن من البشر عبادًا مخلَصين لا سلطان له عليهم.

وهذا يفسّر قول الله للملائكة حين تساءلوا عن جعل الخليفة في الأرض:

قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ (البقرة: ٣٣)

فلم يكن تساؤل الملائكة اعتراضًا، بل إدراكًا لطبيعة مزدوجة في الإنسان: قابلية للفساد، وقابلية عظيمة للصلاح والاصطفاء.

4) السبع المثاني

يَرِدُ مصطلح **المثاني (مَثَانِي)**—ويُترجَم كثيرًا بـ"المُثنّى" أو "المُكرَّر تلاوةً"—في مواضع منها :**الحِجر 15:87** و**الزمر 39:23**، كما ورد في حديث مشهور. ففي سورة الحجر يخاطب الله نبيَّه ﷺ بأنه آتاه عطاءً خاصًّا:

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَـٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ (الحِجر: ٨٧)

وتدلُّ بنية الآية على أن **المثاني** جنسٌ أوسع، وأن النبي ﷺ أُعطي **سبعًا مخصوصة** من هذا الجنس العام؛ سبعًا لها **منزلة متميزة** بالنسبة إلى بقية القرآن، ولذلك ذُكر **القرآن العظيم** بعدها على جهة الاستقلال.

وفي المقابل تصف سورة الزمر **القرآن كله** بأنه مثاني:

ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا مَّثَانِىَ ...(الزمر: ٢٣)

فصار عندنا لافتٌ في الدلالة: الزمر تجعل **القرآن كله مثاني**، والحِجر تقول إن النبي ﷺ أُعطي **سبعًا من المثاني والقرآن**.

وجاء في الحديث المشهور الذي رواه أبو سعيد بن المعلّى في صحيح البخاري:
عن أبي سعيد بن المعلى أن رسول الله ﷺ قال» :**الحمد لله رب العالمين هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته**) .«رواه البخاري(
أي: إن **سورة الفاتحة** هي **السبع المثاني** والقرآن العظيم الذي أُوتيه النبي ﷺ.

وبناءً على ذلك ذهب جمهور العلماء إلى أن **السبع المثاني** هي **آيات الفاتحة السبع**؛ لأنها تُكرَّر في كل ركعة، فناسبها معنى "المثاني" من جهة التكرار. لكن هذا التفسير وحده لا يجيب بصورة تامة عن أسئلة دلالية، منها:

- لماذا قال الله" :**سبعًا من المثاني** "بما يوحي بوجود "مثاني" أخرى؟
- وكيف يمكن أن يكون **القرآن كله** مثاني كما في الزمر؟
- ثم إن الجذر اللغوي **مثنى** يدل على **الثنائية والازدواج** (المُقابلة/التثنية)، وهو معنى أقرب إلى "البنية الثنائية" لا مجرد التكرار.

ولهذا جاء تفسيرٌ ثانٍ—نُسب إلى ابن عباس (في رواية)، وابن مسعود، وقتادة، ومجاهد (في قول)—أن **السبع المثاني** هي **السبع الطوال**:
البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، والأنفال/التوبة (تُعدّان معًا لاتصالهما وعدم الفصل بينهما بالبسملة).
وسُمِّيت مثاني لأنها حافلة بالثنائيات المتكررة :**الرحمة/العقوبة، الدنيا/الآخرة، الوعد/الوعيد** ...موافقةً للمعنى اللغوي المتعلق بالازدواج والمقابلة.

وإذا فُهِمَت **المثاني** على أنها وصفٌ لطريقة القرآن كله—كما في الزمر—استقام ذلك مع التحليل اللغوي والموضوعي؛ إذ يعلّم القرآن كثيرًا عبر المقابلات :**الثواب/العقاب، الإيمان/الكفر، النور/الظلمات، مصائر الأمم السابقة/المحاسبة الآتية، الأوامر/النواهي**.

كما أن المسلمين الأوائل كانوا يقسمون القرآن في قيام الليل إلى **سبعة أقسام** تُسمّى **السَّبْع**، وهذا يصلح أيضًا—من حيث الاحتمال—أن يكون مرادًا بـ"سبعًا من المثاني."

ولتعميق النظر، يمكن قراءة **الحِجر 15:87** على ضوء الآية التي تليها بضمّ الآيتين معًا:

وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ (الحِجر ٨٧)
لَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ (الحِجر ٨٨)
والترابط هنا لافت:

- **"آتيناك سبعًا من المثاني"...**
- **"لا تمدنّ عينيك إلى ما متعنا به أزواجًا منهم"...**

وهذا يفتح احتمالًا تفسيريًا إضافيًا: أن يكون المراد بالمثاني هنا **عطايا الله للأنبياء الذين جاءوا في "أزواج"**، وأن النبي ﷺ أُعطي **سبع عطايا متميزة** من جنس ما أُعطي للأنبياء "الأزواج". ومن أمثلة هذه الأزواج :**موسى وهارون، داود وسليمان، زكريا ويحيى، إبراهيم ولوط**.

وبذلك قد تكون الآية 88 ("لا تنظر متطلعًا إلى ما متّعنا به أزواجًا منهم") مؤكِّدة لمعنى الآية 87 ("آتيناك سبعًا من المثاني")؛ أي:
"يا محمد، قد أُعطيتَ أنت سبعَ عطايا عظيمة، فلا تتطلع إلى ما أُعطي غيرك من الأنبياء الأزواج".
وتكون هذه السبع نعمًا تشترك في أصلها مع نعم الأنبياء السابقين، لكنها اكتملت وبلغت تمامها في النبي محمد ﷺ، مثل:

1. النبوة والوحي
2. النصر على الطغاة وإنجاء المؤمنين
3. التأييد بأصحاب مختارين
4. الخطاب المباشر والقرب من الله (كالمعراج)
5. المعجزات المؤيدة للرسالة
6. القيادة والتشريع الشامل
7. الشرف وعلو المنزلة بين الخلق

ومع أن أنبياء سابقين أُعطوا أشياء لم تُعطَ للنبي ﷺ—كملك مادي واسع، أو تسخيرٍ خاصٍّ للجن، أو خوارق جسدية معينة—فإن النبي ﷺ أُعطي من جهة أخرى عطايا لا تُقارن، لم تُعطَ لهم بهذا الاتساع والختام، مثل:

- رسالة عالمية خاتمة
- أعظم معجزة :**القرآن**
- أكبر أمة وأكثرها حفظًا للرسالة
- أكمل شريعة
- العروج إلى ما وراء السماوات (المعراج)

وعليه يمكن لمصطلح **السبع المثاني** أن يحمل **معاني متعددة صحيحة** بحسب السياق:

- **الفاتحة** بنص الحديث
- **السبع الطوال** على قول عدد من السلف
- منهج القرآن كله في التعليم عبر **الثنائيات والمقابلات**
- **سبع عطايا نبوية** خُصّ بها النبي ﷺ بما ينسجم مع سياق (الحِجر 15:87–88)

وهكذا تكشف هذه الأوجه مجتمعةً عن طبقاتٍ من العمق القرآني، وتُظهر ثراءَ لفظ **المثاني** في الخطاب الإلهي.

5) التعامل مع الأذى اللفظي

تقرر هذه الآيات مبدأً خالدًا: لا ينبغي للمؤمن أن يجعل الإهانة أو السخرية أو التشهير تُقلق قلبه وتُخرجه عن اتزانه. فالانتقام ليس هو الجواب النبوي. بل يأمر الله نبيه ﷺ—ومن خلاله جماعة المؤمنين—أن يضعوا توكلهم الكامل على الله؛ فهو وحده الكافي في الدفاع عن رسوله ودينه:

فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ (٩٤) إِنَّا كَفَيۡنَاكَ الۡمُسۡتَهۡزِئِينَ (95) الَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ (96) وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (97) فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُنۡ مِنَ السَّاجِدِينَ (98) وَاعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّى يَأۡتِيَكَ الۡيَقِينُ (سورة الحجر 94–99)

ومع أن السخرية تُوجع القلب، فإن الله يبيّن للنبي ﷺ أن دواء الأذى اللفظي هو :**التسبيح، والسجود، والثبات على العبادة** .فالقوة الحقيقية ليست في ردّ الاستفزاز بمثله، بل في الارتقاء عنه وترك العدل لله، ناصر الحق.

ويشهد التاريخ بصدق هذا الوعد؛ فكثير ممن كانوا يسخرون من النبي ﷺ صاروا لاحقًا من أوفى أنصار الإسلام، دليلًا حيًا على قدرة الله على تقليب القلوب.

فقد كان **سهيل بن عمرو** من أشد خصوم الإسلام وخطيبًا بارعًا يُجاهر بالطعن. وبعد بدر اقترح عمر رضي الله عنه كسر ثنيتيه حتى لا يقدر على الخطابة ضد الإسلام، فرفض النبي ﷺ وقال ما معناه" :**لعل سهيلًا يفعل يومًا أمرًا يسرّك ".**ثم أسلم سهيل، وصار ركنًا في المجتمع الإسلامي. وبعد وفاة النبي ﷺ، حين اضطربت بعض القبائل، خطب أهل مكة محذرًا:

يا معشر قريش، لا تكونوا آخر من أسلم وأول من ارتد والله إن هذا الدين ليمتدن امتداد الشمس والقمر من طلوعهما إلى غروبهما في طلام طويل.

فبكى عمر رضي الله عنه متذكرًا كلمة النبي ﷺ، وحمد الله الذي وجّه بلاغة سهيل لخدمة الإسلام.

ولا تنتهي تحولات الهداية في القرون الأولى؛ فالله يهدي القلوب بطرق عجيبة إلى اليوم. فهناك من غلظ في الخصومة ثم قاده البحث والإنصاف إلى الإسلام، فتحوّل من الطعن إلى الاعتذار، ومن التشويه إلى الدفاع أو التبيين. وهذه الشواهد تؤكد أن **تبديل القلوب بيد الله وحده**.

وعليه، فواجب المؤمن ليس الانفعال والغضب، بل **الصبر، والسمو الخلقي، والثقة بالله** .فالغضب والانتقام يعتم القلب، أما التوكل فيورث صفاءً وقوة. وليكن المؤمن على يقين أن الله يحفظ رسوله، ورسالة الإسلام، ومن يحملها بأخلاقها.

وخلاصة الدرس :**إذا جُرِحت بالكلام، فلا تنزل إلى مستوى المستهزئين؛ بل ارتقِ بالعبادة والثقة والكرامة.**

6) المؤمن يرى الجمال في كل شيء

يدعو الله المؤمنين إلى إدراك **الجمال** في خلقه، لا مجرد المنفعة. فكل ما خلقه الله يحمل مقصدًا وانسجامًا جماليًا يدعو للتفكر في الإتقان.

حتى عند الحديث عن الأنعام—التي قد تُرى مجرد موارد نافعة—يُبرز القرآن جانب الجمال فيها:

وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۚ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ (٥) وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ (النحل ٥ ،٦)

ترفع الآية مشهدًا يوميًا عاديًا—عودة القطعان مساءً وخروجها صباحًا—إلى صورة من السكينة والجمال. وتعلّم المؤمن أن يرى الرونق والانسجام حتى في أبسط تفاصيل الحياة، وأن رؤية الجمال تعمّق الشكر وتزيد حضور القلب مع الله.

لكن القرآن لا يكتفي بدعوة المؤمن إلى رؤية الجمال، بل يدعوه إلى **تجسيد الجمال** في الخُلُق والسلوك، وخاصةً عند الشدائد. لذا يربط القرآن مرارًا بين السمو الأخلاقي ووصف **"جميل"**: صفح جميل، صبر جميل، سراح جميل، هجر جميل. وهذه ليست مجرد مشاعر، بل عبادات سلوكية تُحوّل المحنة إلى تهذيب ورقيّ.

(1) الصفح الجميل

وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ(ال الحجر: ٨٥)

الصفح الجميل هو ترك الضغينة دون انتظار اعتذار، ابتغاء وجه الله. يحرر القلب ويرفع صاحبه.

(2) الصبر الجميل

قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ (يوسف: ٨٣)

الصبر الجميل احتمال بلا شكوى، وثباتٌ بوقار، وانضباط نفسي مع حسن الظن بتوقيت الله.

(3)السراح الجميل – سَرَاحًا جَمِيلًا

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (الاحزاب: ٤٩)

حتى في الطلاق—وهو موطن ألم—يأمر الإسلام بالعدل والرفق والاحترام، في تجلٍّ للجمال الأخلاقي.

(4)الهجر الجميل – هَجْرًا جَمِيلًا

وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا (المزمل: ١٠)

إذا وُوجه المؤمن بالأذى أو الاستهزاء، فإنه يبتعد بسكينة لا بمرارة، تاركًا الأمر لله، محافظًا على كرامته.

هذه التعابير الأربعة تُشكّل قلب الأخلاق الإسلامية في أوقات الشدة؛ فهي تُحوّل ردود الأفعال الغريزية إلى عبادة وتهذيب، وتجعل الألم سلّمًا للترقي الروحي.

7) العقوبة الحقيقية في الآخرة – فاصبر

يتساءل كثير من الناس حين يرون الظلم والفساد: لماذا لا يُعاجِل اللهُ الظالمين بالعقوبة فورًا؟ والقرآن يجيب بوضوح:

وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلۡمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗۖ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ (النحل:61)

تقرر هذه الآية قاعدةً كلية :**الدنيا ليست دار الجزاء النهائي**؛ وإنما هي **ميدان امتحان** .وسيأخذ كلُّ نفسٍ حقَّها كاملًا في الآخرة.

لماذا يؤخّر الله العقوبة؟

1. لأن العقوبة لو كانت فوريةً على كل ظلمٍ وبغي، **لما بقي على الأرض أحد**؛ فالناس يظلمون أنفسهم ويتجاوزون في أحوال شتى.
2. لأن الإمهال يفتح باب **التوبة والتحول**، وهو رحمة بالظالم وبالمجتمع.
3. لأن الإمهال ذاته **ابتلاء للمؤمنين** يكشف صدقهم وصبرهم وشجاعتهم، ويُظهر أثر الإيمان في المواقف العصيبة.

ومع ذلك، ففي حالات نادرة حين يبلغ الظلم حدًّا يهدد باجتثاث المؤمنين، كما وقع في قصص نوحٍ وعادٍ وثمود، **يتدخل العدل الإلهي في الدنيا** بعقوبات قاصمة.

لكن يجب التنبه :**تأخير العقوبة لا يعني الرضا** .فالإيمان لا يجيز للمؤمنين أن يكونوا سلبيين أمام المنكر. وقد حذّر النبي ﷺ:

عن حذيفة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال **{ والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله عز وجل أن يبعث عليكم عذابا من عنده ثم تدعونه فلا يستجاب لكم }** رواه الترمذي وحسنه.

وبيّن كذلك المنهج العملي في مقاومة المنكر:

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:
(من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان) رواه مسلم.

فإن عجز الإنسان عن الفعل أو القول، **فلا يجوز أن يذوب قلبه في التبرير أو التعاطف مع الباطل**؛ بل أقل الإيمان أن يرفضه قلبًا، وألا يسانده أو يجمّله أو يدافع عنه.

إن إمهال الله ليس إهمالًا؛ بل هو **حكمة ورحمة** .وكم من رجل لو عُوقِب في أول الطريق لَخَسِرته الأمة خسارة عظيمة: عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي خرج يومًا يريد قتل النبي ﷺ صار من أعظم قادة الإسلام؛ وخالد بن الوليد الذي قاتل المسلمين في أحد صار لاحقًا **سيف الله**.

فالإمهال لا ينقص العدل، بل **يُتمّه** :يفتح باب التوبة، ويكشف الصدق من الادعاء، ويمتحن الصابرين، ويفضح المفسدين، ويقود إلى مآلات لا يتوقعها البشر.

وخلاصة الرسالة للمؤمن: ليس المطلوب أن يعترض على توقيت عدل الله، بل أن **يتحرك بجرأة، ويرفض المنكر، ويصبر، ويتوكل، ويثبت على الحق** حتى يأتي الحكم النهائي. فالعدل آتٍ، لا يتقدم ولا يتأخر عن أجله.

8) بركات الطاعة

يعرض القرآن صورةً فريدة من "الوحي/الإلهام" إلى مخلوق صغير عجيب :**النحل**:

وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ (٦٨) ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلٗاۚ يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ (النحل:68 ,69)

وتخاطب الآية **النحل بصيغة المؤنث،** وهو تفصيل ينسجم مع الحقائق البيولوجية الحديثة؛ إذ إن عماد الخلية في البناء والتنظيف وجمع الرحيق والحراسة وصناعة العسل إنما تقوم به **الشغالات (إناث النحل)،** بينما وظيفة الذكور محدودة أساسًا في تلقيح الملكة.

وقولُه تعالى" :**وأوحى ربك إلى النحل** "يشير إلى نوع من **الإلهام الغريزي؛** فالنحل يتحرك تحت توجيه الله، يسلك المسارات الدقيقة، ويبني مجتمعًا بالغ التعقيد، ويؤدي أعماله بانسجام مدهش.

وطاعته تُثمر أمرًا عجيبًا :**العسل**—غذاءً وحلاوةً وشفاءً. وهكذا تصبح النحلة مثالًا حيًا للنظام الروحي: حين يسير المخلوق في **"سبل ربه "**تكون النتيجة جمالًا ونفعًا واتزانًا. وكذلك المجتمعات إذا انتظمت وفق هدي الله، خرج من "بطونها" أثرٌ يشفي ويُصلح لا أثرٌ يجرح ويُفسد.

وتدعو النحلة إلى سؤالٍ جادّ :**ما الثمار التي تنتجها مجتمعاتنا؟** إذا كان الإسلام حقًا دين رحمة وتجديد وسلام، فينبغي أن تظهر آثاره لا في كتب التاريخ فحسب، بل في واقع المسلمين اليوم. وكما يقول شعار ولاية ميزوري: "أرني"، فإن القرآن يطلب **دليلًا عمليًا؛** فالمؤمن الحق ينبغي أن تكون أعماله **حلوة نافعة شافية** كما يصنع النحل عسلَه.

وقد ضرب النبي ﷺ مثلًا بديعًا للمؤمن بالنحلة:

وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، إِنَّ مَثَلَ الْمُؤْمِنِ لَكَمَثَلِ النَّحْلَةِ، أَكَلَتْ طَيِّبًا، وَوَضَعَتْ طَيِّبًا، وَإِنْ وَقَعَتْ عَلَى عُودٍ نَخِرٍ لَمْ تَكْسِرْهُ (أحمد والبيهقي)

وهذا الحديث يوافق رسالة الآيات تمامًا:
المؤمن لا يتغذى إلا بالحلال الطيب، ولا يخرج منه إلا الطيب النافع، وهو لطيف لا يؤذي حتى وهو يتعامل مع الضعيف. وكما يشفي العسل أجساد الناس، ينبغي أن تشفي أعمال المؤمن مجتمعه.

ولفظ **"شفاء "**يبرز في سياقين كبيرين:
شفاءٌ للأبدان في **العسل،** وشفاءٌ للقلوب والأرواح في **القرآن** .وهذه مقابلة عميقة: فالعسل شفاء جسدي نتج عن طاعة النحل لإلهام فطري، والقرآن شفاء روحي يتلقى بركاته من أطاع الوحي المنزل. وكلا الشفاءين من عند الله، ولا تظهر بركاتهما إلا مع **الطهارة والانضباط والاستقامة**.

9) خلاصة مكارم الأخلاق كلها

من إعجاز القرآن اللغوي والأخلاقي أنه يوجز أصول السلوك الفاضل كله في كلمات معدودة. قال تعالى:

إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ (٩٠) وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ (النحل:90–91)

تبدأ الآية بصيغة مؤكّدة: (إن الله يأمر)، فتزيل أيّ تردد في مصدر الإلزام. وفي هاتين الآيتين تُعرض **أربع واجبات كبرى** و**أربع نواهٍ أخلاقية** تشكل أساس المجتمع الصالح المستقر.

الواجبات الأربع الكبرى

1) العدل:
هو إعطاء كل ذي حق حقه. وجذر "العَدل" يدل على الموازنة والتكافؤ، فالمطلوب عدلٌ في القضاء، والاقتصاد، والقيادة، والعلاقات، والنزاعات.

وقد حذّر النبي ﷺ معاذًا حين بعثه إلى اليمن:
اتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ، فَإِنَّهَا لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ (متفق عليه)

ولا تقوم أسرة ولا مؤسسة ولا دولة إلا بالعدل.

2) الإحسان:
هو أعلى درجات الفضيلة. فالعدل يحقق التوازن، أما الإحسان فيتجاوز التوازن إلى فضلٍ ورحمة: تقابل الإساءة بالعفو، والجفاء بالوصل، والعقوبة بالرأفة في مواضعها. وهو باب واسع لا تحدّه معادلات "الرد بالمثل"، بل يعلو فوق الحسابات.

3) إيتاء ذي القربى:
أي إعانة الأقارب المحتاجين ممن لهم حق الرحم، خاصةً لمن وسّع الله عليه. وهذا يقوي الروابط الأسرية، ويخفض الفقر، ويبني الرحمة الاجتماعية، ويجعل الكرامة والرعاية متبادلة داخل الأسرة والمجتمع.

4) الوفاء بعهد الله:
أعظم العهود هو الميثاق الأول الذي أُخذ على بني آدم:
وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (الأعراف:172)

وهو عهد التوحيد والوفاء لله. ويدخل فيه كذلك الوفاء بالعهود والمواثيق والالتزامات في كل شؤون الحياة؛ لأن الثقة هي "الإسمنت الأخلاقي" الذي يربط المجتمع. فإذا سقطت الثقة تهاوى البناء كله.

النواهي الأربع

1) الفحشاء:
كل صور الفساد الفاضح والانحلال الذي تمجه الفطرة السليمة.

2) المنكر:
ما تنكره الشرائع السوية والعقول والضمائر، مما يخالف حدود الله وتستقبحه الأخلاق.

(3البغي:
تجاوز الحد، بالظلم أو الاستعلاء أو العدوان أو سلب حقوق الآخرين بأي صورة.

4) نقض الأيمان والعهود:
(ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها). ويميز العلماء بين **يمين** و**عهد**؛ فحنث اليمين له كفارة، أما نقض العهد فيضرب جذور الثقة ويهدم أساس الاستقامة.

وقد قال النبي ﷺ:
لا إِيمَانَ لِمَنْ لا أَمَانَةَ لَهُ، وَلا دِينَ لِمَنْ لا عَهْدَ لَهُ (أحمد)

فحسن الخلق ليس أمرًا هامشيًا في الإسلام؛ بل هو قلب رسالته النابض. ولذلك قال ﷺ:
إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق

وهكذا تَجمع هذه الآيات أصول الأخلاق النبوية في كلمات قليلة: عدلٌ، وإحسانٌ، وصلةٌ، ووفاءٌ؛ مع اجتناب الفساد والعدوان ونقض المواثيق.

10) اللطف في الدعوة

اللطف في دعوة الناس إلى الإسلام يحفظ للمؤمن "العلو الأخلاقي". فهدف الدعوة ليس الانتصار في الجدل، بل **كسب القلوب** .والإقناع الحقيقي يأتي بالحكمة والرفق والصدق والدليل الواضح مع التواضع؛ فالناس تنفر بطبعها من القسوة، وتميل إلى الرأفة والاهتمام الصادق.

ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴿النحل: 125﴾

ويقرر القرآن أن الحق—ولو كان أغلى الحق—قد يُرفض إذا قُدّم بعنف. فالرفق ليس ترفًا اجتماعيًا؛ بل هو **شرط من شروط القبول** .وقد جعل القرآن لين النبي ﷺ مفتاح نجاحه:

فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ... (آل عمران: 159)

وكلمة (فَظًّا) وإن ترجمت غالبًا "غليظًا"، فلها جذرٌ تصوّري قوي؛ فهي تُستعمل في العربية لما هو **كريه المذاق،** بما يشبه سائلًا مُرًّا يُضطر إليه المضطر. فالمعنى العميق: قد تحمل الكلمة القاسية شيئًا من الحق، لكن الناس تدفعهم فطرتهم إلى رفضها لأن **غلافها مُرٌّ منفّر**.

ولهذا: إذا كان اللطف مطلوبًا في تبليغ ما هو خيرٌ واضح، فهو أشد طلبًا حين تكون الرسالة مما قد يصعب على السامع تقديره أو قبوله ابتداءً.

بل إن الله حين أرسل موسى وهارون إلى فرعون—رمز الاستكبار والطغيان—أمرهما بالقول اللين:

فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ (طه: 44)

فإذا كان الرفق مطلوبًا مع من ادعى الألوهية، فهو مطلوب مع كل من نرجو هدايته.

والرفق ليس ضعفًا؛ بل هو قوة أخلاقية، وتجَلٍّ لرحمة الله في سلوك عباده. فالقسوة تُغلق القلوب، واللطف يفتحها. والدعوة لا تنجح بإخضاع العقول، بل **بتليين القلوب،** ولا ينفتح قلبٌ لرسالة تُلقى بازدراء.

وهكذا يختم المعنى بالتذكير: الهداية بيد الله، ودورنا أن نبلّغ الحق **بحكمة وجمال ورحمة**.

الخاتمة

مجتمعةً، تدعو هذه "الجواهر" القارئ إلى صبرٍ أعمق أمام تأخر العدل في الدنيا، وإلى وعيٍ أشدّ بحدود تأثير الشيطان مع استمرار محاولاته، وإلى تقديرٍ أوسع لمنهج القرآن في بناء المعاني عبر الثنائيات المقصودة :**الرحمة والعقوبة، الدنيا والآخرة، الوعد والوعيد**.

إن التأمل في هذه المعاني يُقوّي توكل المؤمن على الله، ويُرسّخ مسؤوليته الأخلاقية، ويزيده إجلالًا للقرآن بوصفه أعظم هبة للنبي ﷺ، وأبقى هداية للأمة عبر كل زمان.

جواهر الجزء الخامس عشر: مسالك الحكمة الإلهية

(النحل 16:129 – الكهف 18:83)

مقدمة

ينسج الجزء الخامس عشر من القرآن الكريم طائفةً من أعمق البصائر في طبيعة الإنسان، وهداية الله، والسنن التي تحكم صعود الأفراد والأمم وسقوطهم. وتكشف آياته كيف يصوغ الله الأقدار بحكمةٍ ورحمةٍ وعدل، ويمنح المؤمنين مبادئ عملية يسيرون بها في الحياة بوضوحٍ وغاية. ومن الروابط المقدسة في سورة الإسراء، إلى الدروس التحويلية في سورة الكهف، يقدّم هذا الجزء مجموعة من الجواهر، يضيء كلٌّ منها بُعدًا من أبعاد الإيمان: برّ الوالدين، احترام الخلق جميعًا، فهم الهداية الإلهية، الثقة بقدرة الله على تغيير الأحوال، وتجسيد الإحسان في القول والخُلُق والاختيار.

وتتآلف هذه الموضوعات لتكوّن خريطةً أخلاقية وروحية متماسكة، تقود المؤمن إلى النضج والاتزان والثبات في عالمٍ مليءٍ بالابتلاءات والفتن.

1. الروابط الأربع

تفتتح سورة الإسراء بإرساء **أربع روابط إلهية عميقة** تُؤطّر رسالة السورة، وتضع الأمة المسلمة ضمن السلسلة الطويلة للوحي عبر التاريخ.

1) الرابط الأول: بين موضعين مقدّسين

تبدأ السورة بربط مسجدين شرّفهما الله :**المسجد الحرام** بمكة و**المسجد الأقصى** بالقدس. وكلاهما مقدّسٌ عند المسلمين، ويشكّل ارتباطهما محور الرحلة الروحية الكبرى في **الإسراء**.

سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ . (الإسراء:1)

2) الرابط الثاني: بين التوراة والقرآن

ثم تربط السورة بين الوحي الذي أُوتيه **موسى عليه السلام** والوحي الذي أُوتيه **محمد** ﷺ .ومع تأكيد الأصل الإلهي لكليهما، يَعلن القرآن أنه يهدي **للتي هي أقوم**، مُثبتًا مكانته بوصفه الهداية الخاتمة المصححة الباقية للبشرية.

وَءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلۡنَٰهُ هُدٗى لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلاً (الإسراء:2)

إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَبِيرٗا (الإسراء:9)

3) الرابط الثالث: بين أمتين

وترسم السورة رابطًا ثالثًا بين **بني إسرائيل**—أمة موسى—وبين **الأمة المسلمة**—أمة محمد ﷺ. فتُظهر استمرارية الرسالة من جهة، وتُبرز موضع العظة والتحذير من جهة أخرى: إذ انحرفت بنو إسرائيل مرارًا ووقع منها الفساد، بينما تُكلَّف الأمة المسلمة بأن تكون **عباد الله الصالحين** القائمين بالعدل وإحياء الصلاح في الأرض.

وَقَضَيۡنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَتُفۡسِدُنَّ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَّتَيۡنِ وَلَتَعۡلُنَّ عُلُوّٗا كَبِيرٗا (الإسراء:4)

...فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ لِيَسُـٔۥُواْ وُجُوهَكُمۡ وَلِيَدۡخُلُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوۡاْ تَتۡبِيرًا (الإسراء: ٧)

4) الرابط الرابع: بين موسى ومحمد ﷺ

وتُشير السورة إلى اقترانٍ معنوي بين موسى ومحمد ﷺ: فكما ذُكر الإسراء بمحمد ﷺ، ذُكر إيتاء الكتاب لموسى عليه السلام؛ لتأكيد أن النبي ﷺ داخلٌ في المسار الإلهي نفسه، وأن القرآن هو خاتمة ما سبق من الوحي وتمامه.

سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ... (الإسراء:1)
وَءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ ... (الإسراء:2)

وهذه الروابط الأربع—بين المواضع المقدسة، والكتب الإلهية، والأمم النبوية، والأنبياء أنفسهم—تُفسّر لماذا يعيد القرآن عرض تاريخ بني إسرائيل مرارًا :**تحذيرًا للأمة المسلمة من تكرار الأخطاء، وتذكيرًا بمسؤوليتها في إقامة العدل والصلاح والثبات على الصراط المستقيم.**

2. الليل والمادة المظلمة

تُضمِّن هذه الآية إشارةً ذات بُعد علمي: أن **الظلمة هي الحالة الغالبة في الكون**، وأن **الضياء استثناء** جعله الله بطمسٍ للظلمة خدمةً للإنسان. فالنهار الذي نراه على الأرض ليس لأن الفضاء "مضيء"، بل لأن ضوء

الشمس **يتبعثر** في الغلاف الجوي للأرض. أمّا خارج الغلاف الجوي even—قرب النجوم—فإن الضوء يسير في خطوط مستقيمة دون أن "يملأ" المكان إنارةً، فيبدو الفضاء شديد السواد.

"وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَـٰهُ تَفْصِيلاً (الإسراء:12)

ويُعزّز العلم الحديث هذا الإطار العام؛ إذ يفهم الفيزيائيون الضوء طاقةً تحملها الفوتونات، بينما تبقى "الظلمة" في ذاتها مجالًا واسعًا من الأسئلة. ويعتقد العلماء اليوم أن جزءًا كبيرًا من الكون يتكوّن من **مادة مظلمة** لا تُصدر ضوءًا ولا تمتصه، لكنها تُرصد من أثرها الجاذبي في المجرات والبنى الكونية. وما تزال طبيعة جسيماتها غير معروفة؛ وكأن الآية تُبرز الضوء "آيةً فاعلة" وتُبقي الظلمة "خلفيةً كونية" لم يُكشف سرها كله بعد.

3. الكتاب الشخصي

تذكر سورة الإسراء **ثلاثة كتب** :كتابين إلهيين هما **التوراة والقرآن**، وكتابًا ثالثًا هو **سجل أعمال كل إنسان**.

وهذا الكتاب الثالث فريدٌ من نوعه: لا يُنزَّل على الناس جماعةً، بل يُلزم به كل فرد، يدوّن كل ما يصدر عنه. وفي يوم القيامة يُخرَج للعبد كتابه **منشورًا** لا مجال فيه لإنكار أو تحريف.

"وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابًا يلقاه منشورًا (13) اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبًا" (الإسراء:13–14)

ويرمز هذا الكتاب الشخصي إلى **عدلٍ مطلق** :لا تضيع حسنة، ولا يُنسى ذنب، ولا تُمحى حركةٌ من سجل العمر. بل إن الإنسان—عند عرض كتابه—لا يجد أصدق من نفسه شاهدًا عليه. وهكذا تضع السورة الإنسان بين **كتابين يهديانه**، و**كتابٍ ثالث يشهد عليه**.

4. التكريم الشامل

يؤكد هذا الجزء مبدأً أخلاقيًا عظيمًا: أن **التكريم شامل**—للآباء والأمهات، ولجميع الخلق، ولكل إنسان. فبعد الأمر بتوحيد الله مباشرةً، يضع القرآن واجب الإحسان إلى الوالدين في منزلةٍ تاليةٍ مباشرة، دلالةً على عِظم ثقله في الميزان الإلهي.

" ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل

لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا (٢٣) وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا." (الإسراء:23–24)

ثم تتسع دائرة التكريم لتشمل الكون كله؛ إذ إن كل ما في السماوات والأرض يسبّح لله، فكيف يَليق بالمؤمن أن يُهين مخلوقًا يشارك في تسبيح الله وهو لا يفقه تسبيحه؟

"تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن... وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم..." (الإسراء:44)

فالكون ليس صامتًا؛ بل هو في **عبادة دائمة** .ومعرفة ذلك تغيّر طريقة تعاملنا مع العالم: فكل شيء—مخلوقًا كان أو مادةً أو بيئةً—له نصيب من ذكر الله بطريقته.

ثم يقرر القرآن تكريمًا أوسع :**تكريم بني آدم** جميعًا تكريمًا أصلًا قبل كل فروق العِرق والطبقة والجنسية وحتى الموقف العقدي؛ فإذلال إنسانٍ هو مصادمةٌ لكرامةٍ منحها الله له ابتداءً.

"ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضّلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلًا." (الإسراء:70)

وهذا التكريم الإلهي يُشكّل قاعدة الأخلاق الإسلامية:

- الوالدان يُكرّمان تكريمًا خاصًا فريدًا.
- الخلق يُحترمون لأنهم في تسبيح لله.
- وكل إنسان يحمل كرامةً أصيلة لا يجوز انتهاكها.

5. الحكمة: الوصايا العشر

بعد أن ساق الله سلسلةً من التوجيهات الجامعة، ختم هذا المقطع ببيانٍ حاسم أنّ هذه الأوامر داخلةٌ في **الحكمة الموحى بها**:

ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ.... (الإسراء: ٣٩)

فهذه الوصايا تمثّل حكمةً ربانيةً خالصة، منسجمةً تمام الانسجام مع الفطرة السليمة والعقل المستقيم، وتكوّن دستورًا أخلاقيًا متكاملًا يضبط سلوك الفرد ويُصلح المجتمع.

الوصايا القرآنية في الإسراء(17:22–39)

1. **توحيد العبادة**
وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ

2. **الإحسان إلى الوالدين**
وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا

3. **إعطاء ذي القربى والمسكين وابن السبيل، والنهي عن التبذير**
وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا

4. **النهي عن قتل الأولاد خشية الفقر**
وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖ... نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُم

5. **النهي عن الاقتراب من الزنا**
وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗۖ وَسَآءَ سَبِيلٗا

6. **تحريم قتل النفس إلا بالحق**
وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ

7. **حماية مال اليتيم والوفاء بالعهد**
وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۚ وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِ...

8. **العدل في الكيل والميزان**
وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِ

9. **النهي عن اتباع ما لا علم به**
وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ

10.**النهي عن الكبر والمشي مرحًا**

وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولٗا

هذه الوصايا العشر تُقيم ميزانًا جامعًا بين: التوحيد، وبرّ الوالدين، والمسؤولية الاجتماعية، والعدل الاقتصادي، وطهارة الأخلاق، وصيانة النفس، وحماية الضعفاء، واحترام العلم، وتزكية النفس بالتواضع. فهي حكمةٌ تُنضج الفرد، وتُصلح المجتمع، وتبني إنسانًا مستقيمًا في عبادته ومعاملته.

6. اختيار أحسن القول

يؤكّد الله في مواضع متعدّدة على أهمية انتقاء الكلام، لا من حيث صدقه فحسب، بل من حيث جماله وأسلوبه وأثره. وفي هذه الآية يأمر عباده أن يختاروا **أحسن** ما يُقال:

وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينٗا (الإسراء:53)

تتضمّن الآية توجيهين أساسيين:

- **اختيار أحسن الألفاظ وأجمل الأساليب** :فليس كافيًا أن يكون القول حقًا، بل ينبغي أن يُقدَّم في صورةٍ حسنةٍ راقيةٍ تُراعي مشاعر المخاطَب وتفتح قلبه.
- **الوعي بدور الشيطان** :فالشيطان يسعى إلى إدخال النزغ والخصومة عبر نبرة الكلام وحدّته، فيحوّل النصيحة الصادقة إلى صراعٍ وتنافر.

وتؤكّد سورة النحل هذا المنهج في الدعوة والتواصل:

ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ (النحل:125)

فالخطاب القرآني يضع قواعد عامة للتواصل:

- الحكمة في فهم المقام والإنسان.
- الموعظة الحسنة التي تلامس القلب.
- المجادلة بالتي هي أحسن، دون غِلظةٍ أو تعالٍ.

إن طريقة القول لا تقلّ أهمية عن مضمون القول؛ فالكلمة القاسية تُغلق القلوب، والكلمة اللطيفة تفتحها. ومن هنا كان اختيار أحسن القول أساسًا للأخلاق القرآنية والتواصل الراشد.

7. الهداية

قد تُفهم بعض الآيات – إذا أُخذت منفصلةً عن السياق القرآني العام – على أنّ الله يهدي من يشاء ويُضِلّ من يشاء على وجهٍ اعتباطي. وهذا الفهم غير صحيح، إذ يناقض عدل الله، ويتعارض مع ما قرّره القرآن من مسؤولية الإنسان:

وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُمۡ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِهِۦۖ (الإسراء:97)

مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا (الكهف:17)

ولفهم ذلك، يميّز القرآن بين **ثلاثة أنواع من الهداية**:

1) الهداية العامة

وهي الهداية التي منحها الله لكل إنسان، عبر:

- الفطرة السليمة
- والوحي بواسطة الرسل

إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (الإنسان:3)

وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى (فصلت:17)

2) هداية المعونة

وهي توفيقٌ إضافيٌّ يختصّ به الله من قبلوا الهداية العامة وسعوا إليها:

وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (محمد:17)

3) الهداية المُثبِّتة

وهي الهداية التي تُثبّت المؤمن في الدنيا، وعند الموت، وفي الآخرة:

يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ (إبراهيم:27)

فإذا حُرم إنسان من هداية المعونة أو التثبيت، فذلك ليس ظلمًا، بل نتيجة لسننٍ أخلاقيةٍ بيّنها القرآن، مثل الظلم، والفسق، والكفر، والخيانة، والكذب، والاستكبار، والإسراف.

8. النبوءة

يفهم كثير من المسلمين من قوله تعالى:

وَقُلۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ لِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱسۡكُنُواْ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ جِئۡنَا بِكُمۡ لَفِيفٗا (الإسراء:104)

بناءً على هذه الآية، ومع بعض الروايات الحديثية، يعتقد كثير من المسلمين أن اليهود سيجتمعون في نهاية المطاف في أرض فلسطين، ثم بعد ذلك يعود عيسى عليه السلام ليواجه قوى الفساد والظلم. وفي التصور الإسلامي، لا يعود عيسى بوصفه مؤسِّسًا لدينٍ جديد، بل تابعًا للنبي الخاتم محمد ﷺ، فيكون نصره للحق ووقوفه في صف المؤمنين، أي المسلمين.

ومن اللافت أن فكرةً موازيةً لذلك توجد في التصورات الأخروية لدى المسيحية الإنجيلية؛ إذ يعتقد كثير من الإنجيليين أن عودة المسيح لن تتحقق إلا بعد تجمّع اليهود في الأرض المقدسة. وقد شكّل هذا الاعتقاد دافعًا أساسيًا لما عُرف بالصهيونية المسيحية المبكرة، التي نادت بإقامة وطنٍ لليهود في فلسطين قبل أن تتبنّى الحركات السياسية اليهودية هذه الفكرة رسميًا. ورغم أن قياداتٍ يهوديةً رفضت هذا الطرح في بداياته، فإنها قبلته لاحقًا، وأصبحت تلك الجماعات المسيحية من أشدّ الداعمين لقيام دولة إسرائيل الحديثة.

وعليه، فإن المسلمين والمسيحيين الإنجيليين يشتركون في توقّع أن يسبقَ تجمّعٌ واسعٌ لليهود في فلسطين أحداثٌ كبرى فاصلة في آخر الزمان، غير أن كلّ فريقٍ يتصوّر مآلاتٍ مختلفة:

- **في التصور الإسلامي** :يعود عيسى عليه السلام لنصرة المؤمنين (المسلمين) ومواجهة الظلم والفساد.
- **في التصور الإنجيلي** :يعود المسيح لإنقاذ المؤمنين، بعد أن يكون الصالحون من المسيحيين قد رُفعوا في حدث «الاختطاف.«

ومن هذا المنظور، تبرز مفارقة لافتة؛ فالمسيحيون الذين يؤمنون بعقيدة الاختطاف يتوقعون ألّا يبقى على الأرض مؤمنون صالحون عند عودة المسيح، في حين تصف النبوءة الإسلامية عيسى عليه السلام بأنه يعود لينضمّ إلى المؤمنين الباقين على الأرض، وهم المسلمون. وبهذا المعنى، يبدو تسلسل الأحداث كما يقدّمه التصور الإسلامي أكثر اتساقًا داخليًا ضمن إطاره الأخروي الخاص.

9. التوكّل على الله يغيّر القواعد

في سورة الكهف، لجأ الفتية إلى الله توكّلًا كاملًا، وطلبوا رحمته **من لدنه**:

إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةٗ وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا (الكهف:10)

فغيّر الله لأجلهم سننًا كونية:

- أوقف الزمن عنهم قرونًا.
- صرّف أجسادهم لئلا تصيبهم الآفات.
- وجّه مسار الشمس حمايةً لهم.
- وألقى المهابة في نفوس من يراهم.

وفي القصة نفسها، يبرز العبد الصالح الذي آتاه الله علمًا لدنيًا:

فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا (الكهف:65)

فتكشف القصتان أن التوكّل الصادق يفتح أبوابًا تتجاوز الأسباب المألوفة، ويُدخل العبد في دائرة الرعاية الإلهية الخاصة.

10. طلب الأفضل دائمًا

بعد نومٍ دام ثلاثمائةٍ وتسع سنين، لم يطلب فتية الكهف أيّ طعامٍ كيفما كان، بل طلبوا **أزكى** الطعام:

فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَـٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا (الكهف 19)

وهذا يعكس مبدأً إيمانيًا رفيعًا:
المؤمن يطلب الأفضل، لا المتاح فحسب.

فحسن الذوق ليس ترفًا، بل هو انعكاسٌ لنقاء الداخل:

- البساطة مع النظافة جمال.
- القلّة مع الإتقان جودة.
- الاعتدال مع الترتيب كمال.

وهذا المبدأ يشمل كل شؤون الحياة: القول، والطعام، واللباس، والعمل، والمعاملة.

الخاتمة

تُظهر جواهر الجزء الخامس عشر أن الهداية القرآنية ليست نظريةً مجرّدة، بل برنامجًا متكاملًا للحياة الكريمة. فهي تربط الإيمان بحسن الخلق، والتوحيد بإكرام الوالدين، والتوكّل بتغيّر السنن، والكلمة الطيبة بسلامة القلوب.

وهكذا يقف هذا الجزء شاهدًا على أن كل آيةٍ مصباح، وكل توجيهٍ جوهرة، لمن أراد أن يحيا بالقرآن رشدًا ونورًا، ويعود إلى الله قلبًا وسلوكًا ومسيرًا.

عن المؤلف

الدكتور ممدوح محمد سلامة هو زميل هندسي سابق في إحدى شركات النفط الكبرى، وزميل مدى الحياة في الجمعية الأمريكية للمهندسين الميكانيكيين(ASME) .

حصل على درجة البكالوريوس في الهندسة الميكانيكية بامتيازٍ عالٍ من مصر، ودرجتي الماجستير والدكتوراه في الهندسة الميكانيكية من معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا (MIT) .

قام بتأليف أكثر من 150 ورقة بحثية تقنية، وحصل على 25 براءة اختراع، وحرر أكثر من 30 من وقائع المؤتمرات الدولية، كما شغل منصب رئيس عدة مؤتمرات دولية متعلقة بالتطويرات البحرية والقطبية.

إلى جانب عمله في مجال الهندسة، يُعدّ د. ممدوح محمد سلامة محاضرًا وناشطًا دعويًا في المراكز الإسلامية بمدينة هيوستن، حيث يُلقي خُطب الجمعة ويقدّم دروسًا ومحاضرات في عطلات نهاية الأسبوع. كما كتب مقالات عن الإسلام نُشرت في عدد من الصحف، وألقى محاضرات توعوية لجماهير مسلمة وغير مسلمة على حدّ سواء.

وهو مؤلف الكتب التالية:

- **انعكاسك في مرآة الإسلام**، وقد خضع لمراجعة واعتماد لجنة الأزهر الدينية وأُجيز لتوزيعه في الغرب.
- **تدبر القرآن من خلال عدسة المصطلحات الرئيسية**.
- **بأسمائه نَهتدي: رحلة إلى غاية الخلق وسرّ الحياة**

ويعمل حاليًا على عدد من المؤلفات الجديدة المستلهمة من محاضراته، من بينها:

- **من الفاتحة إلى الناس: المحور المركزي لكل سورة**.
- **القرآن: مخطط للحضارة والنجاة**.
- **مذكرات النبي ﷺ**.
- **صحابة النبي ﷺ**.

وتعكس هذه الأعمال التزامه بربط العمق العلمي بالتأمل الإيماني، من خلال هداية القرآن الكريم وتعاليم النبي ﷺ، سعيًا إلى تقديم فهم متوازن يجمع بين الفكر، والروح، والعمل.

الغلاف الخلفي

يأخذك هذا الكتاب في رحلة تأملية عبر النصف الأول من القرآن الكريم، من **الفاتحة** إلى **الكهف**، كاشفًا عن جواهر الهداية التي تُشكّل الإيمان، وتُهذّب السلوك، وتبني الوعي الإنساني والحضاري.

يقدّم كل جزء مجموعة مختارة من الآيات بوصفها *دُررًا* مضيئة، تكشف سنن الله في النفس والمجتمع، وتربط بين العقيدة، والأخلاق، والواقع المعاش.

هذا المجلد هو الجزء الأول من مشروع علمي تأملي يهدف إلى إعادة قراءة القرآن بوصفه دليل حياة، ومنهج هداية، وبوصلةً للإنسان في عالمٍ تتكاثر فيه الفتن والاختيارات.